الله محمد بن تومرت وقيل إن نسبه يصل إلى الحسين عليه السلام. وكان فقيهاً في ابتداء أمره، ورافق الغزالي والكيا ، والطرطوشي، وكان رأى في منامه كأنه يشرب ماء البحر، وروي أنه ظفر بكتاب الجفر من بعض الخزائن، ورأى فيه صفة عبد المؤمن بن علي، وأنه يملك فحج ومضى إلى المهدية وسلطانها يومئذ يحيى بن تميم، ونزل في مسجد، وليس معه إلاّ ركوة وعصا، فبلغ يحيى خبره وأحضره وسأله الدعاء، فدعا له ، وتستامع أهل البلد وقرأ عليه العلم، ثم انتقل إلى المنستير، فنزل بالقصر، ثم انتقل إلى قريةٍ من قرى بجاية يقال لها ملالة، فلقيه أبو محمد عبد المؤمن بن علي فصحبه فأخبره المهدي عن اسمه وقبيلته فأخبره باسمه، وأنه من قيس من سليم من شعب بني الشريد،فقال له المهدي أنت الذي بشر بك النبي « صلى الله عليه وسلم» في قوله: « إن الله ينصر هذا الدين في آخر الزمن برجل من قيس، فقيل له من قيس يارسول الله؟ فقال: من سليم»فاستبشر عبد المؤمن بذلك، وعلم أنه مقيم دعوته، فلم يزل المهدي مصاحباً له حتى توفي المهدي.

ودخلت سنة سبع وخمسمائة

فيها توفي الملك رضوان ملك حلب، وفيها ملك حلب تاج الدولة الأخرس بن رضوان، وفيها قتل مودود بجامع دمشق، وفيها تسلم أتابك طغتكين صور من المصريين، وفيها قتل الآمر بأحكام الله صاحب مصر، في الجزيرة بمصر، قتله الاسماعيلية، وفيها مات أبو بكر محمد بن أحمد ابن الحسين الشاشي صاحب المستظهري، الفقيه الشافعي مولده سنة تسع وعشرين وأربعمائة، أخذ العلم عن الشيخ أبي إسحق الشيرازي، وكان إماماً عالماً، وولي التدريس بنظامية بغداد، وفيها مات وزير المستظهر بالله، أبو القاسم علي بن محمد بن جهير.

ودخلت سنة ثمان وخمسمائة

فيها : زلزلت الأثارب وخسف بمرعش وسميساط. وفيها كانت وقعة في الشام بين آق سنقر البرسقي وبين إيلغازي بن أرتق واتفق إيلغازي، وأخذ ابنة طغتكين صاحب دمشق، وخالفا السلطان فأفرج عن إيلغازي وأخذ ابنه اياز وحبسه، ونفذ السلطان العساكر إلى الشام مقدمها برسق، وتقدم إليهم أن كل بلد يفتحونه يسلمونه إلى بركات بن قراجة، ويعقد له إمارة الشام، فكان ذلك مما أوجب مخامرة العساكر، وقالوا: أي حظ لنا في فتح البلاد وتسليمها إلى هذا، فخرج عليهم بروجيل الفرنجي صاحب أنطاكية، في خمس مائة فارس، وألفي راجل، فتخاذلوا وانهزموا على كثرة جمعهم، وقتل الفرنج من المسلمين جماعة وأحرقوا الأسارى.

ودخلت سنة تسع وخمسمائة

فيها: فتح برسق حماه.

ودخلت سنة عشر وخمسمائة

فيها: مات السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه، واستقرت السلطنة لولده محمود. وفيها قتل لؤلؤ الخادم صاحب حلب، قتله قوم من الأتراك وهو متوجه إلى قلعة جعبر.

ولما دخلت سنة اثنتا عشرة وخمسمائة

توفي المستظهر بالله بها لسبع بقين من ربيع الآخر ، وكان عمره إحدى وأربعين سنة وأشهراً، فكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً، وخلف من الأولاد: أبامنصور الفضل ، المسترشد

بالله، وولي الخلافة بعد أبيه، وأبا عبد الله محمد، المقتفي لأمر الله، وأبا الحسن، وأبا طالب، وإبراهيم، واسماعيل وعيسى، وابنتين.

خلافة المسترشد بالله

أبي منصور الفضل بن المستظهر بالله ، ولد في رابع ربيع الأول سنة خمس وثمانين وأربعمائة، وأمه أم ولد، تدعى طرفة ، بويع بالخلافة يوم موت أبيه في سابع عشرين ربيع الآخر، سنة اثنتي عشرة وخمسمائة . وفيها فتحت الفرنج أعزاز والرها، وتسلم إيلغازي حلب.

ودخلت سنة ثلاث عشرة وخمسمائة

فيها: ورد سنجر بن ملكشاه من خراسان إلى الري فملكها وتسمى بالسلطنة. وفيها عبر نجم الدين صاحب ماردين الفرات، فكسر فرنج أنطاكية، وقتل ملكهم روجال، وأسر منهم على تل عفرين على ما قيل عشرة آلاف ما بين فارس وراجل، ثم بعد ستة أيام وقعت حرب بين المسلمين والفرنج على دانيث من أرض سرمين. فكسر المسلمون نصف الفرنج، وكسر الفرنج نصف المسلمين، وهلك من الفريقين خلق عظيم، ثم بعد ذلك نصر الله المسلمين، وأخذوا قلعة الآبار.

ودخلت سنة أربع عشرة

فيها: تسلم أتابك طغتكين تدمر، والشقيف، وفيها كسر إيلغازي الفرنج على البلاط من أعمال حلب،وأخذ صاحب أنطاكية أسيراً، وفيها أطلق نجم الدين بن أرتق لأهل حلب جميع ماكان جدده عليهم الملك رضوان من الكلف، فكان مقداره في كل سنة اثني عشر ألف دينار، وزاد الكيل والذراع.

ودخلت سنة خمس عشرة

فيها قتل الأفضل أمير الجيوش بمصر، وفيها تسلم الفرنج أعزاز من المسلمين.

ودخلت سنة ست عشرة

فيها: مات الحريري، صاحب المقامات، وهو أبو محمد القاسم بن علي بن عثمان، ولد في حدود سنة ست وأربعين وأربعمائة، وكان السبب في عمله المقامات أنه كان يوماً جالساً بمسجده بالبصرة، ويعرف بمسجد بني حرام، فدخل عليه شيخ، عليه أهبة السفر، رث الحالة، فصيح اللهجة، فسأله من أين هو فقال من سروج، وكنيتي أبو زيد، فعمل الحريري المقامة الحرامية، فبلغ أنو شروان بن خالد، وزير المسترشد بالله، وزير السلطان محمد ذلك، وطالع المقامة فأمره أن يضم إليها غيرها، فامتثل أمره وعمل المقامات المشهورة به، وفيها في صفر قتل السلطان محمد وزيره خواجا بزرك.

ودخلت سنة سبع عشرة

فيها: برز المسترشد بالله لحرب دبيس بن صدقة، فخرج لابساً قباء أسود ، وعمامة وبردة النبي ـ صلى لله عليه وسلم ـ وعلى رأسه طرحة، وتهيأ، دبيس للقتال وهو بالحلة ، وكان في عساكر دبيس البغايا والمخانيث، والملاهي يضرب بها، ولايسمع في عسكر المسترشد إلاّ قراءة القرآن والتسبيح،فهزم دبيس أقبح هزيمة، بعد أن قتل منهم خلق عظيم، ونصر الله المسترشد وأصحابه، ونهبوا الحلة، وكان سبب ذلك عصيان دبيس وسفكه الدماء، وقطعه الطريق، حتى بطل الحجيج في سنة ست عشرة خوفاً، وبعث المسترشد إليه يخوفه ويعظه ويحذره فلم ينته فأوقع به النهب والقتل، ولما كسر دبيس انهزم إلى الملك طغرلبك

ابن أخي السلطان محمود، لما علم من طغر لبك من طلبه الملك، فسار طغر لبك ودبيس معه بعسكرهما نحو بغداد. وفيها تسلم الفرنج قلعة الأثارب، وأقامت في أيديهم إلى سنة أربع وعشرين وخمسمائة، وفيها حاصر بلك حلباً وتسلمها.

ودخلت سنة ثماني عشرة

فيها: وصل طغر لبك ودبيس إلى القرب من بغداد، ولم يشعر المسترشد بذلك، فمرت جمال عليها أمتعة ومال للمسترشد فأخذها دبيس، وكان المسترشد مبرزاً على الدسكرة ، فلما بلغه ذلك سار حتى أشرف على دبيس وأصحابه، فلما علم دبيس أنه لامفر له نزل وقبّل الأرض بين يدي المسترشد وقال: أنا العبد المطرود المذنب، أما آن له أن يعفى عنه، فلم يجبه أحد، فعاود القول والتضرع ، فرق له المسترشد وهم أن يعفو عنه،فصرفه الوزير عن ذلك، فلما رأى دبيس ذلك أخذ أصحابه وانصرف، وعاد المسترشد إلى بغداد. وفيها تسلم البرسقي حلباً، وفيها جمع الجوسلين الرومي عساكر الفرنج ونزل على حلب، وأقام أربعة أشهر، وخرب المشاهد والضياع ، وخرج جماعة من أهل حلب إلى تمرتاش سألوه نصرتهم فلم يجبهم، فساروا إلى آق سنقر البرسقي، وكان قد مرض مرضة، ونذر إن عافاه الله تعالى ليفرجنّ عن حلب الشدة، فسار مع شيوخ الحلبيين في جيش قاصداً حلب، فلما علم الفرنج بذلك رحلوا عن حلب مرحلة إلى جبل جوشن، وضربوا الخيم عليه، ووصل آق سنقر إلى حلب في ذي الحجة من السنة ، وصعد قلعة حلب، وتحولت الفرنج إلى الأثارب، وتحول المسلمون إلى السعدي. وفيها قتل بلك ملك، ضربه مجير الدولة البعلبكي صاحب منبج في ودجه فهلك، وفيها قتل الفرنج محمود بن قراجة صاحب حماة على أفامية، وفيها نزل آق سنقر البرسقي. بمجمع المروج بين حمص وحماه، وعزم المسلمون على الجهاد، فأول موضع حاصروه وفتحوه كفر طاب، فتحها آق سنقر البرسقي

وسلمها إلى صاحب حمص، ثم حاصر قلعة أعـزاز ونقبوها وهرب الفرنج منها، وفيهـا في نصف ربيع الآخر قتـل القاضي أبو الفضل بـن الخشاب رحمه الله ، تبعـه قوم بعـد صلاة العشـاء الآخرة فقتلـوه ، فأمـر آق سنقر البرسقي بقتل جماعة من أهل حلب ممـن اتهم بالباطنية لأجله. وتوجه آق سنقر إلى الموصل.

ودخلت سنة عشرين وخمسمائة

فيهـا: دخل السلطـان محمـود بغداد، ونقـل المسترشـد باللـه الحرم إلى الجانـب الغـربي، ونـزل السلطـان محمـود بـالجانـب الشرقـي، ونهب دار الخلافة، وجـرى قتال ونهب، ثـم اتفق الصلـح، وحلف السلطـان محمود للمسترشد بالله، واختلط الجيشان على إتفـاق. وفيها وصل قتلغ آبه غلام السلطان محمود بتوقيع من مسعود بـن آق سنقر البرسقي إلى نائبه بحلب تومـان، حتى يسلـم إليه حلـب فلم يقبـل التوقيـع، وكان بصحبتـه مجد الديـن الطويل، صـاحب حران فدفـع قتلغ آبه التـوقيع إليه مـن مسعود وفيه صورة غـزال وطال الأمر على قتلغ آبـه، فعاد إلى مسعود فوجـده قد مات على باب الـرحبة، وهو مطروح على نطع، وقد اشتغـل الناس بنهب بعضهـم بعضاً، فعـاد قتلغ آبـه إلى حلب وحلـف لتومـان وتسلم قلعـة حلب منه .

وفيها : قبض السلطان سنجر بن ملكشاه على دبيس بن صدقة، وكان نازلاً عليه، واعتقله في قلعـة تقرّباً إلى المسترشد بالله، وفيهـا قفز جمع من الباطنية على آق سنقـر البرسقي فقتلوه بجامع الموصـل في يوم جمعة ، فلما قتـل ورد رسول السلطـان سنجر بـن ملكشاه إلى بغـداد يأمـرهم بتسليم الموصل إلى دبيس بن صـدقة، وجميع ما كان بيد آق سنقـر البرسقي فتهيأ دبيس للمسير، فبعـث المسترشد إلى السلطـان محمود لايكـون ذلك أبـداً، ووقـع اختيار المسترشـد على أن يولي الموصـل لعماد الديـن زنكي بـن آق

سنقر، وزنكي يومئذ شحنة بغداد، وبذل المسترشد للسلطان محمود مائة ألف دينار على تولية زنكي الموصل، فتسلمها وسار السلطان محمود إلى همذان.

ودخلت سنة اثنتين وعشرين

فيها: تسلم أتابك زنكي قلعة حلب والرحبة.

ودخلت سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة

وفيها عاد السلطان محمود إلى بغداد فدخلها وانحدر إليه أتابك زنكي من الموصل بهدايا، ثم عاد إلى الموصل ومعه توقيع السلطان محمود بالموصل والجزيرة وحلب والشام والعواصم وما اتصل بذلك، وفيها نزل الفرنج دمشق بقرية السعادة. وفيها تسلم الفرنج بانياس من الاسماعيلية، وفيها قتل المزدقاني بقلعة دمشق، وفيها قتل اخواجا بهرام ومعه جماعة كثيرة بوادي التيم، وفيها خرج سيف الدين سوار بعسكر حماه وأوقع بالفرنج على كفر طاب، فقتل منهم خلقاً عظيماً ، وفيها وصل أسطول الفرنج في البحر، وسمعوا خبر دمشق وخلوها من سلطان فطمعوا بها فجمعوا خمسين ألف فارس وراجل، وخرجوا من البحر، ونزلوا على دمشق ثم أناخوا بحوران، فأنفذ تاج الملوك إلى سيف الدين سوار، وإلى العرب، فجاء الأمير مرى بن ربيعة، ومعه خلق من العرب وضربوا مع الفرنج مصاف القتال، فقتلوا من الفرنج أمماً لاتحصى، وأحرقوا خيمهم ورجالهم ورحلو هم عن بلد دمشق عرياً، وفيها مات السلطان محمود بباب أصفهان، وولي أخوه مسعود مكانه، هكذا ذكره بعض المؤرخين، وقيل إن وفاته كانت في سنة خمس وعشرين.

ودخلت سنة أربع وعشرين

فيها قتلت الباطنية الآمر بالله أبا علي، صاحب مصر ابن المستعلي بالله، وعمره يومئذ أربع وثلاثون سنة، وتولى مكانه أبو الميمون عبد المجيد ابن أبي القاسم المستنصر ولقب بالحافظ الكفيل، وفي ثالث يوم من جلوسه تغلب الأفضل أبو علي ابن أمير الجيوش ، بدر على الدولة، وقبض على الحافظ واعتقله بالقصر، فتحالف جماعة من مماليك الأمير على قتل أبي علي، فقتلوه بسيفه، واحتزوا رأسه، ويقال إنه كان سيف الحسين بن علي عليهما السلام، وأخرجوا الحافظ من ساعتهم وبايعوه، وفيها كانت وفاة أبي عبد الله محمد بن تومرت المهدي صاحب بلاد المغرب.

ودخلت سنة خمس وعشرين وخمسمائة

فيها قتل تاج الملوك بوري بقلعة دمشق، وقتلت أم ولده شمس الملوك إسماعيل بعده. وفيها قبض دبيس بن صدقة بحلّة حسان بن مكتوم من أعمال دمشق، وقد ضل عن طريقه إلى صرخد، وتقطع أصحابه فلم يكن له مهرب من العرب، فقبضوا عليه وحملوه إلى دمشق، فقايضه أمير دمشق ابن طغتكين من عماد الدين زنكي وكان عدواً لدبيس، فظن دبيس أنه سيهلكه، فلما حصل في قبضته أكرمه وعظمه وخوله المال والسلاح والرجال حتى قدمه على نفسه، وكان المسترشد بالله لما بلغه أسر دبيس بدمشق بعث ابن الأنباري كاتب الإنشاء إلى دمشق ليأخذ دبيس من الأسر، للعداوة التي كانت بين دبيس وبين المسترشد، فلما وصل ابن الأنباري إلى الرحبة في الماء علم بحصول دبيس في يد زنكي ثم نفذ زنكي عسكرا إلى الرحبة، قبضوا على ابن الأنباري وحملوه إلى قلعة الموصل.

ودخلت سنة ست وعشرين

فيها وصل الملك مسعود بن محمد إلى بغداد في عشرة آلاف، وورد إليها قراجا الساقي صاحب فارس وخوزستان، ومعه سلجوق شاه بن محمد وهما يطلبان السلطنة . وقراجا أتابك سلجوق، وانحدر زنكي بن آق سنقر من الموصل لينضم إلى الملك مسعود، فلما بلغ إلى تكريت جهز قراجا إليه ألفي فارس، فهزموا زنكي وقتلوا من أصحابه جماعة، وأسروا جماعة، وأصلح المسترشد بالله بين الملك مسعود وبين أخيه سلجوق شاه، وخطب لهما جميعاً، وقطعت الخطبة لسنجر بالعراق، واستقر الحال على أن يخرج المسترشد بنفسه مع مسعود وسلجوق لمحاربة سنجر، وقد خطب له على منابر الشام وديار ربيعة، ومضر، وديار بكر والعراق وأصفهان وفارس، وأما خراسان فله خاصة دون سائر الناس حتى سمي ذا القرنين سنجر، وورد سنجر بالعساكر العظيمة، من خراسان، والتقى الجمعان وقامت الحرب، فقتل قراجا وانهزم مسعود وسلجوق شاه، وأما المسترشد فإنه كان بخانقين ولم يشهد حرباً، وقصد محاربة زنكي بن آق سنقر ودبيس، فالتقوا على فرسخين من غربي بغداد، ووقع بينهم الحرب نصر فيها المسترشد وكسر عسكر زنكي ودبيس، وانهزما، وعاد المسترشد إلى بغداد منصوراً، وأما سنجر فإنه عاد إلى بلاده وأخذ البلاد التي بيد قراجا، وهي بلاد فارس وخوزستان، وكاتب زنكي بن آق سنقر ودبيس ابن صدقة ليقصدا بغداد ويفتحاها، فتوجها إليها في سبعة آلاف فارس، فلما شارفاها لقيهما المسترشد بألفي فارس وحاربهما فانتصر عليهما وغنم عسكرهما وانهزما.

ودخلت سنة سبع وعشرين

وفيها دخل السلطان مسعود بن محمود إلى بغداد، فخطب له بالسلطنة بها، وبعده لابن أخيه داود، وخرج المسترشد بالله ومعه

السلطـان مسعود وابـن أخيه داود فخيـم على بغـداد، ثم سير السلطـان مسعـود وداود إلى أذربيجـان لحرب طغـرل بن محمـد، صـاحـب همذان، فساروا ولقـوه وهزموه، واستقر مسعـود بهمذان، وفيها توجـه المسترشد إلى الموصـل بنفسه لمحـاربـة زنكي، فـأغلق زنكـي بـابها في وجه المسترشـد، فضرب المسترشد عليها خيمه.وجمع عليها عالماً لايحصـى، وحاصرها قريباً من ثـلاثة أشهر، فبعث إليـه زنكي ، وضمن لـه أن يحمل له عوضـاً عن جميع ما خرج منه، وبذل له الطاعة.

ودخلت سنة ثمان وعشرين

فيها مات ابن تومرت بالمغـرب، وظهر عبد المؤمن، وفيها مات القاضي أبو علي الحسن بن إبـراهيم بن علي بن برهون الفارقـي، الشافعي، ولد في سنـة ثلاث وثـلاثين وأربعمائة، ودرس العلم في شبيبتـه على يد أبي عبـد اللـه الكازروني، صـاحـب المجـاملي، فلما توفي الكـازروني في سنـة خمس وخمسين وأربعمائة، قصد الشيخ أبا اسحـق الشيرازي، إلى بغداد، والشيخ أبـا نصر بن الصبـاغ وتفقـه عليهما، وحفـظ المهذب للشيـخ أبي اسحـق والشامـل للشيخ أبي نصر، وكـان يقول لأصحـابه كـررت البارحـة الربـع الفلاني من المهـذب، والربع الفلاني من الشامـل، وقد نيف على التسعين سنة، وولي القضاء بواسط، وتوفي فيها، وقد قارب المائة سنة ، وفيها قطع المسترشـد ذكر السلطـان مسعود مـن الخطبـة، وسار إلى همـذان فاصـداً محاربته، فـالتقوا وكسر المسترشد مـن غير قتال، وأخـذ جميع ما معـه من خيلٍ ومالٍ وأسلحـة، وأسروا جميع كبار الدولـة ، وضرب السلطان مسعود في دهليزه خيمة أقعد فيها المسترشد وعليـه الموكلون به، وبعث شحنةً له إلى بغداد فلم يرده أحـداً، ثم أعاد الراشد باللـه، وهو ولي عهد المسترشد باللـه، الخطبة للملك مسعـود، وأعاد النـوبة التي تضرب بـدار المملكة، وقطع خطبة داود.

ودخلت سنة تسع وعشرين

فيها قتل شمس الملوك بدمشق، قتلته أمه، وفيها قتل محمود بن بوري ابن طغتكين أخاه اسماعيل صاحب دمشق، وتقلدها بعده، وفيها قتلت الاسماعيلية بوري صاحب دمشق.

وفيها سار السلطان مسعود إلى أذربيجان والمسترشد معه أسير موكل به حتى نزلوا قريبا من مراغة، فدخل عليه جماعة من الباطنية، قيل إن السلطان سنجر أرسلهم لقتله، فدخلوا عليه فقتلوه وقتلوا معه ثلاثة من أصحابه، فلما علم السلطان مسعود بذلك ركب خائفاً وقتل الباطنية جميعهم، وأحرق جثثهم بعد أن كان الصلح استقر بين المسترشد وبين السلطان مسعود، على مال يحمل إلى السلطان مسعود ، واستقر عود المسترشد إلى بغداد، ومشى السلطان مسعود بين يدي المسترشد حاملاً غاشيته، وبينما هم كذلك، إذ قتل المسترشد كما ذكرناه، وحملت جنازته إلى مراغة، فدفن بها ، وخرج أهل مراغة حفاةً، حاسري رؤوسهم، وكسروا المنابر، وعطلوا المساجد، ولما ورد الخبر بقتل المسترشد إلى بغداد كسروا منابر الجوامع، واقتلعوا أبواب المساجد، وناحوا في الطرقات وجهروا بسب الملكين سنجر ومسعود، وكان قتله في سادس عشر ذي القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة، وكان المسترشد بالله عالماً فصيحاً مدبراً ضبط أمور الخلافة ورتبها أحسن ترتيب، وكان شديد الهيبة، مشهوراً بالشجاعة، كتب إليه مرةً وزيره الحسن بن علي بن صدقة، وقد نقم عليه أمراً فصرفه:

ستعلم إن أقصيتني أي خادم
يفوتك إن سارت بليل كتائبه
وتندم إن ظلت لغيرك أنعم
علي وقادتني إليه مواهبه

فكتب المسترشد إليه بخطه تحت لفظه قوله: خادم « مثله كثير» ،

وتحت قوله تندم : « ياهذا الندم أولى بك» . وكتب الوزير إليه مرة كتاباً أوله:

حتى متى أنا موقوف على ظمأ
بين السبيلين لا وردا ولا صدرا

فأجابه المسترشد بالله بخطه تحت هذا البيت « إذا عاودت فكرك فيما شطرته، اعترفت بوجود الغلط والزلل فيما أثبته والسلام»، وكانت مدة خلافه المسترشد بالله سبع عشرة سنةونصف وأياماً.

خلافة الراشد بالله أبي جعفر منصور بن المسترشد

مولده في شهر رمضان سنة اثنتين وخمسمائة، بويع ببغداد حين قتل أبوه بمراغة، وكوتب السلطان مسعود بولايته فأجاب، ولما قتل أبوه كان هو ببغداد مستولياً عليها، وكان أبوه ولاه العهد، وهم بعزله فلم يقدر، وفي هذه السنة وهي سنة تسع وعشرين وخمسمائة قتل دبيس بن صدقة، قتله السلطان مسعود، بعث إليه غلاماً فقتله في خيمة النوبة وأبان رأسه، وذلك بعد ثمانية وعشرين يوماً من قتل المسترشد بالله، وفي هذه السنة توفي مالك بن سالم بقلعة جعبر، قتله محمود بن بوري.

ولما دخلت سنة ثلاثين وخمسمائة

تظاهر الراشد بمباينة السلطان مسعود، فلما بلغ السلطان ذلك قصد بغداد وحاصرها ثلاثة أشهر، فقلق الراشد من الحصار، وخرج من بغداد خفية يريد الموصل،فلما توجه من بغداد، اجتمع الوزير أبو القاسم علي ابن طراد الزينبي وسديد الدولة ابن الأنباري الكاتب، وأحضرا القضاة والفقهاء، وكتبوا محضراً أخذوا فيه خطوط جماعة من العدول بما فعله الراشد من الظلم وسفك الدماء، وأخذ الأموال، وأنه فسق بذلك، وأخذوا خطوط الفقهاء بأنه إذا ثبت فسقه جاز لسلطان الوقت خلعه

والاستبدال بغيره من أهل بيته، ممن يصلح للخلافة، وعرضت الفتوى والمحضر على السلطان مسعود فقال: هذا أمر قد قلدتكموه،وأنا منه بريء عند الله تعالى، فخلعوه، ووقع اتفاقهم على أبي عبد الله محمد بن المستظهر فبايعه السلطان مسعود، والجماعة الحاضرون، ولقبوه المقتفي لأمر الله، ثم عاد السلطان مسعود إلى داره، وفتح الباب ، وبايعه الفقهاء وأعيان الناس، وبعث السلطان مسعود الفتوى والمحضر إلى الآفاق، ليتمهد عذره عند الناس، وكان خلعه في منتصف ذي القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة، وكانت مدة خلافته، إلى أن خلع أحد عشر شهراً وأياماً، وأما الراشد فإنه أقام بالموصل، فراسل السلطان مسعود أتابك زنكي في القبض على الراشد، وانفاذه إليه إلى بغداد، فامتنع من ذلك لكونه ضيفاً عنده، وجهز أتابك زنكي الراشد إلى مراغة، ليخرج من ولايته، فتوجه الراشد فوصل إلى مراغة، وملكها ، وأقام بها ثم سار نحو الري، ثم طلب خراسان ولما قرب من ولاية الباطنية جرد السيف وقتل منهم جماعة كبيرة، ثم عاد يطلب همذان وخرج السلطان مسعود إلى الراشد يحاربه، فاتفق الراشد ومنكورس صاحب فارس وبزيبه صاحب خوزستان على محاربة السلطان مسعود، فحاربوه، فكانت الكرّة على السلطان مسعود، وقتل من أصحابه خلق عظيم، ثم توجه الراشد إلى أصفهان في شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، فدخل عليه جماعة من الباطنية، فقتلوه، وقيل إنه سم بها ودفن بموضع يقال له شهرستان على فرسخ من أصفهان، وقيل بل دفن بجامع المدينة القديمة التي يقال لها جي بأصفهان، وكان قتله في سابع وعشرين من شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة.

خلافة المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله

أمه أم ولد تدعى ياغي، وتلقب بست السادة ، مولده في سنة تسع

وثمانين وأربعمائة، وبويع بالخلافة في سابع عشر ذي القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة، بايعه السلطان مسعود والأكابر والعامة.

ولما دخلت سنة اثنتين وثلاثين

ولد فيها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله تعالى، وفيها كانت زلزلة عظيمة هدمت الأثارب، وفيها خيم أتابك زنكي على حماه، ثم ملك حمص، ومضت الروم إلى شيزر فحصروها، فسار إليهم أتابك زنكي ومعه داود، وحسام الدين ابنا أرتق، فرحلوا الروم عن شيزر، ونهبوا منهم شيئاً كثيراً.

وفيها خرج ملك الروم من القسطنطينية إلى الشام، ونزلوا على حلب، فلقيهم أتابك زنكي ومعه العساكر.

ودخلت سنة ثلاث وثلاثين

فيها كان بحلب زلزلة عظيمة أتت على مائتي ألف نفس فهلكوا.

ودخلت سنة أربع وثلاثين

فيها ولد الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب رحمه الله تعالى.

ودخلت سنة خمس وثلاثين

فيها مات أبو بكر عبد الباقي المعروف بقاضي البيمارستان عن نيف وتسعين سنة، وكان محدّثاً عالماً عالي الاسناد، عالماً بالمنطق، وعلم الهيئة، مشهوراً، وفيها توفي أبو القاسم بن أفلح الشاعر الكاتب.

ودخلت سنة سبع وثلاثين

وفيها ولد الملك العادل سيف الدين، أبو بكر بن أيوب، وقيل بل ولد في سنة إحدى وأربعين، وفيها مات سيف الدين بدمشق.

ودخلت سنة ثمان وثلاثين

فيها مات الوزير أبو القاسم بن طراد الزينبي عن ست وسبعين سنة، وكان عظيماً جليلاً، وفيها قتل السلطان داود بن السلطان محمود بن ملكشاه، على يد جماعة اغتالوه ولم يعرف قاتله، وفيها مات الزمخشري الامام في علم النحو ، وهو محمود بن عمر بن محمد أبو القاسم، ولد في رجب سنة سبع وستين وأربعمائة، وأخذ علم النحو عن أبي نصر النحوي، وكان هذا ـ أبو النصر ـ عالماً فاضلاً، وفيه يقول الزمخشري لما مات أبو النصر:

وقائلةٍ ما هذه الأدمع التي
تساقط من جفنيك سمطين سمطين
فقلت هو الدر الذي قد حشابه
أبو نصر أذني تساقط من عيني

ودخلت سنة تسع وثلاثين

فيها فتحت الرها، ودخل علي كوجك إلى الموصل، في ذي القعدة منها، وفيها تسلم أتابك زنكي سروج من الفرنج، وفيها مات الشيخ أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر، المعروف بابن الجو اليقي، الامام في علم النحو واللغة، ولد في سنة ست وستين وأربعمائة، وكان عالماً، فاضلاً، ورعاً، ديّناً، ثقةً، أخذ العلم عن أبي زكريا الخطيب التبريزي وغيره، وكان يصلي بأمير المؤمنين المقتفي لأمر الله، ويؤدب أولاده، وصنف في علم الأدب تصانيف جمة.

ودخلت سنة إحدى وأربعين

فيها قتل أتابك زنكي بن آق سنقر على قلعة جعبر، وهو محاصرها، قتله بعض غلمانه، وكانوا جماعة سلف منهم ذنب، فتوعدهم فخافوه، فقتلوه، وكان له سطوة وبأس، وخلف من الأولاد الذكور أربعة : نور الدين محمود، وسيف الدين غازي، وقطب الدين مودود، ونصرة الدين أمير ميران، وقام بالأمر بعده ابنه سيف الدين غازي بالموصل واكثر الولاية.

ودخلت سنة ثلاث واربعين

فيها : قتل شاهنشاه بن أيوب في حملة حملها على الفرنج، وفيها أخذ نور الدين محمود أفامية من الفرنج، وفيها نزل ملك الألمان على دمشق، في يوم السبت، ورحل يوم الأربعاء، فكانت مدة مقامه خمسة أيام، وفيها أيضاً حاصرت الفرنج دمشق، فجاء سيف الدين غازي بعسكر عظيم، فرحل الفرنج عنها، وجهز أخاه قطب الدين مودود بعسكر كبير إلى أخيه نور الدين محمود فنزلا على البارة، وأخذاها في هذه السنة.

ودخلت سنة أربع وأربعين

فيها: توفي الأمير سيف الدين غازي بن أتابك زنكي، وفيها تسلم نور الدين حمص، وتل باشر، وفيها مات خليفة مصر أبو الميمون عبد المجيد بن محمد بن المستنصر، الملقب بالحافظ، وقيل بل مات في سنة ثلاث وأربعين، وجلس بعده ولده أبو المنصور إسماعيل الظافر، بنص أبيه، وكان أصغر الأولاد سناً، فأقام متولياً مدةً ثم قتله وزيره عباس بن تميم المغربي وابنه ناصر الدين خفية، وأخفيا قتله، وأنكراه، وأجلسا مكانه للخلافة الفائز، فكتب أهل القصر كتاباً إلى طلائع بن رزيك، وكان في الصعيد الأدنى، وأصحبوا الكتاب شعور النسوان، فلبس

طلائع السواد، وجند جمعاً عظيماً وكاتب أمراء القاهرة في طلب دم الظافر، فساعدوه، فتوجه إلى مصر،فلما سمع عباس وابنه بذلك هربا بأموالهما وكانت عظيمة، فلما وصلا إلى منهل يعرف بمرة وأم كعب قاصدين الشام، خرجت الفرنج عليهما فقتلوا عباساً وأسروا ابنه نصراً، وأخذوا جميع أموالهما، وأما طلائع بن رزيك فإنه وافى القاهرة، فدخلها وأجلسه أهلها للوزارة، ولقبوه الملك الصالح، واستقام أمره، واستقل بتدبير الدولة ،ثم كاتب الفرنج وبعث رسولاً من الفائز ومن عنده، وبعث لهم معه هدايا وأموالاً جزيلة، وطلب منهم نصر بن عباس فسلموه إلى رسوله فجعله في قفص حديد وعاد به إلى القاهرة، فأخذه الصالح طلائع وسلمه إلى النساء فأقمن يضربنه بالقباقيب، والأمدسة أياماً متوالية، ثم قطعن لحمه وأطعمنه إياه مدة شهر حتى مات، ثم صلب على باب زويلة، ثم أحرقوه، وفيها غزا نور الدين محمود بن زنكي فقتل البرنس ملك أنطاكية، ففتح كثيراً من قلاعهم، وفيها وزر عون الدين أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة، وكان يلقب قبل ذلك بجلال الدين.

ودخلت سنة خمس وأربعين

فيها تسلم نور الدين محمود من الفرنج قورص والراوندان، وتسلم الملك مسعود بن قلج أرسلان بهسنا، وكيسون وقونية ورعبان والمرزبان، وفيها تسلم نور الدين من الفرنج أعزاز، وفيها تسلم الملك مسعود بن قلج أرسلان من الفرنج عين تاب.

ودخلت سنة ست وأربعين

فيها قتل علي بن مالك صاحب قلعة جعبر بموضع يقال له وادي العوسج.

ودخلت سنة سبع وأربعين

فيها مات السلطان مسعود بن محمود بهمذان، وفيها توجه السلطان سنجر إلى أتراك بأطراف خراسان، يسكنون البر في خركاوات، عدة بيوتهم مائة ألف خركاه، فأعطوه لكل خركاه شيئاً من الذهب عينوه فلم يقبل، وصافوه فنصروا عليه وكسروه وقوي أمرهم، وخربوا البلاد وأخلوها وقتلوا أهلها، وأتوا مرو فقتلوا كل من فيها، وجاؤوا إلى نيسابور فقتلوا كل من فيها من الفقهاء والعوام وقتلوا في تلك النوبة الامام محيي الدين محمد بن يحيى الشافعي صاحب الغزالي ـ رحمه الله ـ وكان تاريخ العلوم الخلافية، واسروا سنجراً واحتاطوا عليه، وخطبوا له، وقالوا له أنت السلطان ونحن عسكرك، ومازال أسيراً في أيديهم حتى مات، وفيها مات أبو منصور المظفر بن أزدشير العبادي الواعظ، كان عظيم القدر في الزهد والوعظ، له كلام مدون مذكور، وكان قد مضى من دار الخلافة في رسالة إلى الملك محمد بن محمود فمات في الطريق، وحمل تابوته إلى بغداد، ودفن بها، وفيها أطلق نور الدين من جميع البلاد المكوس والمؤن في شهر رمضان.

ودخلت سنة ثمان وأربعين

فيها نقل رأس الحسين ـ عليه السلام ـ من عسقلان إلى مصر، وبنى عليه الظافر مشهداً عظيماً، وكانت عسقلان للمسلمين إلى أن نقل الرأس عنها، فبعده بقليل أخذت الفرنج عسقلان.

ودخلت سنة تسع وأربعين

فيها: فتح نور الدين محمود دمشق، وفيها قتل الظافر صاحب مصر، وولي الفائز.

ودخلت سنة خمسين

فيها: وصل الملك سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه إلى بغداد عبداً وضيفاً وتلقي بولد الوزير عز الدين ابن هبيرة، ولم ينزل أحدهما للآخر، فنزل سليمان شاه وقبّل عتبة الباب النوبي، وعطف عليه المقتفي لأمر الله، وقضى ذمامه وخطب له بالسلطنة، وجهزه المقتفي بجيش من عنده، فقصد أذربيجان، والتقاه ملكها ملكشاه بن محمود وتصافا، وقصدهما محمد شاه بن محمود بعساكره فانهزم سليمان شاه بجيشه وعاد طالباً العراق، فوقف له كوجك صاحب الموصل على رأس الدربند، فلما اجتاز سليمان شاه به قبض عليه كوجك، وعلى خوارزم شاه أخي زوجة سليمان شاه، وأعتقلهما بالموصل، وذلك في سنة إحدى وخمسين، واستديمت الخطبة ببغداد لسليمان شاه مع اعتقاله، وفيها مات الملك مسعود، سلطان الروم ابن قلج أرسلان، وهو حمو نور الدين محمود بن زنكي، وفيها ولى نور الدين محمود مجد الدين أبا بكر بن الداية حلباً وجميع بلادها ،وفيها ولى نور الدين محمود أسد الدين شيركوه دمشق وأعمالها.

ودخلت سنة اثنتين وخمسين

فيها فتح نور الدين محمود بانياس، وتسلم قلعة شيزر، وفيها نزلت الفرنج شيزر، وقتلوا منها خلقاً كثيراً، وفيها توفي صلاح الدين الشيخ بحمص، وكانت حماه له قبل ذلك، وفيها كانت الزلزلة الكبيرة المعروفة بزلزلة حماه، هدمت حماة، وشيزر، وبعض طرابلس واللاذقية وجبلة ومصياف، والقدموس وغيرها، ونبعت عين حارم ماء أحمر كالدم، وخسف بخمس ضياع من اللاذقية، غابت في الأرض، وخرب من حلب شيء كثير، وإنما عرفت هذه بزلزلة حماه لأن أثرها فيها كان أكثر من غيرها، وكانت في ثالث يوم من رجب.

وفيها ولد الامام الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله تعالى، وفيها مرض نور الدين محمود مرضاً شديداً بحلب حتى أشرف على الموت، فسمع أخوه نصرة الدين بمرضه فقصد حلباً، فأمر مجد الدين بن الداية بغلق الأبواب في وجهه، فصاح نصرة الدين في باب قنسرين: أنا مثل أحدكم لم تغلقون الأبواب في وجهي فكسر العوام باب المدينة ودخل نصرة الدين المدينة وقت العصر، وجاء إلى تحت القلعة وصاح إلى مجد الدين بن الداية وهو والي قلعة حلب: إن كان أخي نور الدين في عافية فأنا غلامه وجميع العساكر عبيده، وإن كان أصابه شيء فأي معنى ترموني بالنشاب، فرموه بالنشاب، فحلّف نصرة الدين أهل حلب أن يكونوا يداً واحدةً فحلفوا له، ونهبوا دار الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، وآدر جماعة ، وبقي باب القلعة مغلقاً على نور الدين، ومجد الدين ستة عشر يوماً، ولم يخطب بجامع حلب خطيب، وجمع المؤذين على أذان حيّ على خير العمل، ففعلوا ، وبقي السنة واقفون مع الحلبيين مع نصرة الدين، وتحالف أهل حلب على أن عدوّهم مجد الدين بن الداية، ففصل أسد الدين شيركوه من دمشق، فصعد القلعة وتوسط أن يأخذ نصرة الدين حرّان وعشرة آلاف دينار أميرية، ويمضي إليها بغير اختيار الحلبيين، فرضي نصرة الدين بذلك، ورحل إلى حران، وترك الحلبيين وشأنهم.

ودخلت سنة ثلاث وخمسين

فيها كان المقتفي لأمر الله بايع لابنه المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بولاية العهد، فلما دخلت سنة ثلاث وخمسين قتل عامل للمقتفي على نهر ملك يعرف بالجويري، فتحدث الناس أن الجويري قتل بوضع من ولي العهد يوسف، ووقر في ذهن المقتفي شيء من ذلك، فكتب المقتفي، إلى وزيره عون الدين يحيى بن هبيرة رقعةً: « يايحيى قد تحقق عندي أن الجويري قتل بوضع من ولدي أبي المظفر يوسف، وإني مراجع في نفسي

في نقض عهده، وجعل الخلافة في أخيه أبي علي فما ترى في ذلك؟» فكتب إليه الوزير عون الدين: «العبد يقبل الأرض ويعفر الخد، ويسأل مولانا، إمام المسلمين، وأمير المؤمنين ثبت الله دعوته، التثبت فيما عرض له، فإن الدعوة قد سارت في أقطار الأرض بولاية عهده لولده وقد أخرجت في ذلك أموال جمة، فإن رأى أمير المؤمنين أن لايأخذه بقول متحرضٍ واشٍ، فقد قيل في الشك رب واشٍ غاش ، والرأي أسمى وأعلى». فلما وقف المقتفي على جواب عون الدين أغضى وصفح عن ولده أبي المظفر يوسف، وبهذا الجواب الصادر عن عون الدين، انتفع عون الدين به نفعاً عظيماً حين أفضت الخلافة إلى يوسف المستنجد بالله،فإنه وقف على هذه الورقة بخط عون الدين، فشكره على صنيعه، وأعفاه من الوزارة بعد أن طلبه لها، وألح عليه فلم يفعل، وأكرمه واحترمه، وشكر له ذلك.

وفيها وهي سنة ثلاث وخمسين

مات بدر الدين محمد بن عبد اللطيف بن الخجندي، رئيس أصفهان ومفتيها، وفيها مات ابن منير الشاعر الطرابلسي، كان شاعراً مفلقاً مجوداً، وله ديوان مشهور وأخبار مستطرفة معروفة ، وفيها مات القيسراني الشاعر، كان شاعراً مجوداً.

ودخلت سنة أربع وخمسين

فيها مات السلطان محمد شاه بن محمود.

ودخلت سنة خمس وخمسين

فيها مات ملكشاه.وفيها أفرج علي كوجك على سليمان شاه بن محمد، وخطب له بالسلطنة، وفيها في رجب مات الفائز صاحب مصر، وكان

صبياً عمره احدى عشرة سنة، والمدبر أمرة طلائع بن رزيك، وأقام مقام الفائز العاضد، وهو صبي، وفيها في أول شوال،اتفقت العساكر بباب همذان على القبض على سليمان شاه، فقبضوا عليه وخطبوا لرسلان شاه ابن طغرل وكان بكنجة، وقطعت خطبته ببغداد في محرم سنة ست وخمسين،وفيها - وهي سنة خمس وخمسين - توفي المقتفي لأمر الله في مستهل ربيع الأول من السنة، فكانت مدة خلافته أربعا وعشرين سنة وثلاثة أشهر وثلاثة عشر يوماً، وخلف من الأولاد: أبا المظفر ، وأبا جعفر.

خلافة المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن المقتفي لأمر الله

ولد في ربيع الأول سنة ثمان عشرة وخمسمائة، أمه أم ولد تدعى طاووس، بويع بالخلافة في ثاني ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة وكان مهيباً عالماً، أظهر السيرة الجميلة في ولايته، ورد الأموال المغصوبة إلى أهليها، وأسقط المكوس والضرائب ببغداد، وكانت مضمنه في كل سنة بجملة عظيمة، ولما ولي الخلافة خافه عون الدين ابن هبيرة الوزير للمقتفي، فجمع منه ومن ولديه ثلاثين ألف دينار وحملها مع غلمانه إلى المخزن الشريف، وسأل قبولها وكتب صحبتها: « العبد كان في مبدأ أمره خامل الذكر، وضيع القدر، قدم إلى دار الخلافة المعظمة، وليس له من عرض الدنيا شيء سوى قميص وعمامة يساويان ديناراً يستتر بهما، فسما ذكره ورفع قدره بما شمله من الانعام النبوي، والآن فهو يضرع ويسأل مولانا أمير المؤمنين أن يأذن له في لزوم زاوية مسجدٍ، يعبد الله سبحانه فيه، ويدعو لأيامه الزاهرة، والرأي أعلى وأسمى» فقبل ما حمله، وكتب المستنجد بالله الجواب بخطه: « وقفنا على ما ذكره، وشكرنا سعيه، فأما ما سأله في اعتزاله فلا، لكونه شفيقاً علينا، خالصاً في محبتنا من شبه الريب، حافظاً لنا بالغيب، وهو أحق بمجلسه ممن سواه، ومن يك رأيه

فينا هذا فهو أحرى أن يحفظ ويلحظ، » ثم بعث إليه بالرقعة التي كتبها إليه المقتفي ـ أبوه ـ وقد ذكرناها، وفيها جوابه إلى المقتفي أن لايغير عليه ذلك، ولايستبدل به أحداً، فعلم الوزير أن الله سبحانه نفعه بحسن سفارته ومشورته، وينبغي كل واحد أن لايصدر منه إلاّ خير في حق أعدائه فكيف بأوليائه، ويتوكل على الله سبحانه في جميع أموره، ففيه كفاية.

ودخلت سنة ست وخمسين

فيها : قتل الملك الصالح طلائع بن رزيك، قتله سبعة أنفس من الحاشية قطع أرزاقهم في دهليز القصر، وولى العاضد موضعه ولده رزيك الوزارة، ولقبه الملك العادل مجد الاسلام وخلع عليه، وكان الصالح طلائع متشيعاً موالياً لأهل الحسين عليهم السلام ، وكان شاعراً مجيداً وله ديوان مشهور، من جملة شعره قصيدته التي وازن بها قصيدة دعبل الخزاعي التي أولها:

مدارس آيات خلت من تلاوةٍ
ومنزل وحي مقفر العرصات

وأول قصيدة طلائع:

أعاذل دع لومي على صبواتي
فما مات يمحوه الذي هو آتي
وما جزعي من سيئاتٍ تقدمت
ذهاباً إذا أتبعتها حسناتي
إلا أنني أقلعت عن كل شبهةٍ
وجانبت غرقى أبحر الشبهات
شغلت عن الدنيا بحبي لمعشرٍ
بهم يصفح الرحمن عن هفواتي

وقال في آخرها:

أعـــارض مـــن قـــول الخزاعـــي دعبـــل
وإن كنـــت قـــد أقللـــت مـــن مـــدحـــاتي
مـــدارس آيـــات خلـــت مـــن تـــلاوة
ومنـــزل وحـــي مقفـــر العـــرصـــات

ولما ولي رزيك بن طلائع أظهر العدل، وتمكن من الدولة، فأشير عليه بعـزل شاور السعدي وكان أبـوه طلائع ولاه الصعيـد الأعلى، فقبل منهـم وكتب كتاباً إلى شـاور يستدعيه فأوجس في نفسه خيفـه وكتب إلى رزيك كتاباً أظهر فيـه الطاعة واستعطفه وذكره بسابق خـدمته، فلما وقف رزيك على كتابه شـاور أهله فيه، فقالـوا: إن أبقيته طمع فيك فخـالفهم وقال: المصلحة تـركه، فقـالوا: لابـد من عزلـه فأحضر رزيـك نصير الديـن بن شيخ الدولـة ، وولاه قوص، وكتب على يده كتـاباً إلى شاور يأمـره بتسليم قوص إليه، واستـدعاه إليه، فلما وصل نصير الدين إلى أخميـم بعث كتاب رزيك إلى شاور، فلما وقف عليه بعث إلى نصير الدين يقول له:

أنت صاحبي فارجع من حيث أتيت فهو خير لك، فعاد نصير الدين إلى القاهـره، وجاهر شاور حينئـذ بالعداوة والعصيان، وأحضر خلقـاً من العرب وحـالفهم فحشد وقصد مصر ومعـه خلق فانهزم رزيك بخـاصته وأمواله متشتتين في كل نـاحية وأخذ رزيك نحو جهة القبلـة ، فوصل إلى جزيـرة تعرف بسليمان بن البيص اللخمـي، فقبض عليه أهلهـا، وأعلموا سليمان به فسجنه وسار بليلته إلى شاور وعـرفه بقبض رزيك فبعث شاور خمسين فارسـاً فقبضوا على رزيك وأتـوه به مقيداً، وأمـا شاور فإنـه دخل القاهرة، وحضر بين يـدي العاضد فخلع عليه، وحنكـة، واستوزره، ولقبه أمير الجيوش، وحلف له واستحلف الناس له.

وفيها وهي سنة ست وخمسين

حج أسد الدين شيركوه وبث في الحرمين معروفاً كثيراً، وحج في هذه السنة علي كوجك صاحب الموصل.

ودخلت سنة سبع وخمسين

فيها: استولى الضرغام على ديار مصر، وطرد شاور عن الوزارة إلى الشام، وتبعه الضرغام ليدركه فلم يدركه، فلما عاد الضرغام استوزره العاضد وحنكه ولقبه الملك المنصور، وقتل الضرغام من الأمراء الذين كاتبوا شاور مايزيد على سبعين أميراً سوى أتباعهم.

ودخلت سنة ثمان وخمسين

فيها: خرج شاور إلى الشام، ووصل إلى دمشق، واجتمع بنور الدين محمود،ووصف له ديار مصر، وضعف أهلها، وضمن له إن بعث معه عسكراً أخذها له، فندب نور الدين محمود أسد الدين شيركوه لذلك، فسار أسد الدين، وشاور في خدمته، إلى أن أتوا بلبيس وأخذها، ثم أخذ مصر فلما رأى شاور ذلك دبر نفسه، وأصلح شأنه ، مع المصريين سراً ورام إخراج أسد الدين ، فلم يطق إلاّ بمظافرة الفرنج، فكاتب ملك الفرنج ــ صاحب القدس ــ وأمراء الساحل من الفرنج وضمن لهم أموالاً، إن هم جاؤوا إلى مصر وأخرجوا أسد الدين، فأتوا مصر وانحاز أسد الدين إلى بلبيس وتحصن بها، ثم قرر شاور للفرنج على إخراج أسد الدين أربعمائة ألف دينار مصرية، وهادنهم بعد هذه القطيعة خمس سنين، ونزل الفرنج على بلبيس وحاصروا أسد الدين ثلاثة أشهر، وبنوا على بلبيس برجاً، وزحفوا إليها ، هذا كله وأسد الدين لم يقاتلهم، ثم راسلهم أسد الدين في الصلح، على أن يخرج بنفسه وعساكره إلى الشام مودعاً فأجابوه، وحلفوا، فخرج أسد الدين ومن معه إلى الشام، وأخذ

شاور يحث الفرنج على أن يحملوا على أسد الدين ويقللهم في أعينهم فقالوا:

لانفعل لاطاقة لنا بقتاله هو رجل عظيم، ومعه أبطال، ووصل أسد الدين سالماً إلى الشام، وأما شاور فإنه لما عاد إلى مصر، وأحاط بها، علم الضرغام أنه قد أحيط به في القصر، فصاح: يامولانا، يامولانا، فلم يجبه أحد، وبرزت إليه رقعة فيها: « خذ لنفسك وانج بها» فخرج هارباً فأدركه غلمان شاور فقتلوه، وقتلوا أخويه معه: ملهماً والحسام.

وفيها وهي سنة ثمان وخمسين

خرج عبد المؤمن بن علي من مراكش إلى سلا ، فتوفي بها في العشر الأواخر من جمادى الآخرة من هذه السنة ، وكانت ولايته ثلاثاً وثلاثين سنة وشهراً، وخلف خمسة عشر ولداً ذكراً، وكان حسن السيرة محموداً في مملكته، ولما حضرته الوفاة جمع أشياخ الموحدين وقال: إن ابني محمداً لايصلح لهذا الأمر، وإنما يصلح له ابني يوسف فبايعوه، ودعوه بأمير المؤمنين، فلما مات عبد المؤمن كتموا موته وحملوه إلى مراكش ثم أظهروا موته، واستقرت ولاية أبي يعقوب يوسف، وكان فقيهاً عالماً حافظاً، وسار بالناس السيرة الجميلة، وفيها كسرة الفرنج نور الدين محمود على البقيعة بكبسةٍ تحت حصن الأكراد.

ودخلت سنة تسع وخمسين

فيها مات جمال الدين محمد ابن الأصفهاني وزير الموصل المشهور بالكرم والإفضال، وحمل تابوته إلى المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فدفن بها، وفيها مات الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة، صاحب كتاب الافصاح عن معاني الصحاح، ذكر في أوله خلافيات المذاهب الأربع، وكان عالماً، عفيفاً، محباً لأهل العلم، محسناً إليهم ، وزر

لخليفتين سبع عشرة سنة، وفيها فتح نور الدين بانياس، وحارماً من الفرنج.

ودخلت سنة اثنتين وستين

فيها: سار أسد الدين بجيش كثيف إلى مصر في ربيع الأول منها، ونزل بالجيزة، وأقام محاصراً لها نيفاً وخمسين يوماً، ومعه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، فاستنجد شاور بالفرنج، وأذن لهم أن يدخلوا مصر لنجدته، فقدموا قاصدين حرب أسد الدين، فلما عرف أسد الدين مجيئهم رحل من بين أيديهم إلى موضع يعرف بباب البابين، وعبأ أصحابه فيه، وجرى بين أسد الدين والفرنج وبينهم حروب نصر بها المسلمون عموماً والملك الناصر صلاح الدين وأصحابه خصوصاً وقتلوا من المصريين والفرنج ألوفاً ، وأسروا سبعين فارساً من بارونيتهم، ثم قصد أسد الدين وصلاح الدين الاسكندرية فدخلوها ووجدوا أهلها مساعدين لهم على الفرنج والمصريين، وأقام الفرنج بالقاهرة، حتى استراحوا وجددوا آلات الحرب، وولى أسد الدين الاسكندرية صلاح الدين، وتوجه أسد الدين إلى الصعيد فجبى خراجه، وتوجه الفرنج إلى الاسكندرية وحاصروا صلاح الدين بها أربعة أشهر، فلم يظفروا ، وجمع أسد الدين الجموع وتوجه إلى لقاء الفرنج، فلما قرب منهم رحلوا عن الاسكندرية ، وأما شاور فإنه عند ذلك راسل أسد الدين وهادنه على أن ينصرف عنهم إلى الشام، فطلب أسد الدين منهم عوض ما غرمه فبذلوا خمسين ألف دينار ، وأجابوه إلى كل ما سأل، فبعث أسد الدين إلى صلاح الدين وهو بالاسكندرية يستدعيه فأتاه وعاد إلى الشام.

ودخلت سنة ثلاث وستين

فيها: أنعم نور الدين محمود على أسد الدين بحمص وأعمالها فمضى إليها وتسلمها.

- ٩٧٠٥ -

ودخلت سنة أربع وستين

توجه الفرنج إلى مصر، وسببه أنهم لما دخلوها مرتين قبل ذلك اطلعوا على معايبها ومقاتلها وجهاتها فطمعوا في أخذها، وجمعوا جموعاً عظيمةً،ومضوا إليها في المحرم من عسقلان، فلما وصلوا إلى بلبيس حاصروها وملكوها وقتلوا أهلها وأسروهم، ثم نزلوا على القاهرة، ومقدمهم الملك أمري، فقال شاور لأصحابه: أيحسب الملك أن بلبيس جبنة يأكلها فبلغ أمري ذلك، فبعث إليه أمري: نعم بلبيس جُبنة، والقاهرة زبدة، فلما حاصروا القاهرة أحرق شاور مصر خوفاً عليها فلما ضايقوها بالحصار أرسل شاور إلى الملك أمري يطلب منه الصلح على ألف ألف دينار، بعضها معجل وبعضها منجم، فأجابه أمري وحلف على ذلك، فعجل له شاور مائة ألف دينار، ومطله بالباقي، وكاتب نور الدين محمود يستصرخ به وسود كتبه وجعل في باطنها شعور النساء وذوائبهن، وواصل كتبه بذلك إلى نور الدين محمود، وهو يومئذ بحلب، فسار أسد الدين من حمص إلى حلب في ليلةٍ واحدةٍ، وجمع هو ونور الدين جموعاً عظيمةً ومضيا إلى دمشق، وعرضا العساكر على الفوار، ثم دخل أسد الدين إلى مصر، ومعه سبعون ألفاً أو قريباً منها، فلما بلغ الفرنج مجيء أسد الدين رحلوا عن مصر صاغرين، عائدين إلى الساحل، ودخل أسد الدين القاهرة في سابع ربيع الآخر، وجلس في الإيوان، وخلع عليه، ومعه صلاح الدين، وأقام شاور بضيافة العساكر وأكثر التردد إلى خدمة أسد الدين وطلب أسد الدين منه مالاً ينفقه على الأجناد، فماطله به، فبعث إليه الفقيه عيسى بن محمد يقول له: إن الأجناد طلبوا نفقاتهم، وماطلت بها، وقد تغيرت قلوبهم عليك، فإن أتيتني فكن على حذرٍ منهم، فلم يؤثر ذلك شيئاً عند شاور وركب على عادته وجاء إلى أسد الدين مسترسلاً، فاعترضه صلاح الدين يوسف، في الأمراء النورية، وقبض عليه فجاءه من القصر من يطلب رأسه، فقتل

وحمل رأسه إلى العاضد وذلك في يوم السبت سابع عشر ربيع الآخر ، من هذه السنة، وقلد العاضد أسد الدين الوزارة، وكتب العاضد عليه بخطه ما نسخته: « هذا عهد لم يكتب لوزير بمثله، وتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لحملها، والحجة عليك عند الله تعالى بما أوضحه لكم من مراشد سبله، فخذ كتاب أمير المؤمنين، واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت بك بخدمتك بنوة النبوة،واتخذ للفوز سبيلا، «ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا» (النحل: ٩١) .

ونسخة أول المنشور: « من عبد الله ووليه أبي محمد عبد الله بن يوسف الحافظ، إلى السيد الأجل الملك المنصور، سلطان الجيوش ولي الأئمة، مجير الأمة، أسد الدين، كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين، أبي الحارث شيركوه العاضدي، عضد الله به الدين، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين ، وأدام قدرته وأعلى الله كلمته:

سلام عليكم ، فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، ونسأله أن يصلي على جدي محمد خاتم النبيين، وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين الأئمة المهديين، ويسلم تسليماً» ثم يتلو كذلك خطبتان بليغتان فيهما مواعظ ووصايا وتقليد الوزارة، وتدبير الدول بألفاظ حسنة طويلة اختصرناها في هذا المختصر.

وفيها: توفي أسد الدين شيركوه بعد وزارته بخمسة وستين يوماً، وكانت وفاته في يوم الأحد ، ثاني عشرين جمادى الآخرة من السنة ، وكانت مدة مرضه يوماً وليلة، وعمل له بالقاهرة عزاء عظيم، وفيها ولي الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب رحمه الله الوزارة للعاضد بمصر، وذلك أن أسد الدين لما توفي سأل العاضد أصحابه عن عسكر أسد الدين ومن فيه يصلح للوزارة . فقيل له: شهاب الدين

محمود خال الملك الناصر صلاح الدين، فأحضر، وقال أريد أوليك مقام أسد الدين، فقال لا أصلح لها، وإنما يصلح لها ابن أختي ، صلاح الدين يوسف، وكان بموافقة الأمراء النورية وغيرهم فعقد العاضد الوزارة لصلاح الدين، وخلع عليه، وكتب له منشوراً ولقبه الملك الناصر، واستقل الملك الناصر في تدبير الدول . وفيها قتل الخصي الأسود المعروف بمؤتمن الخلافة ، وكان زمام قصر الخلافة ، ومطاعاً فيهم، فاتفق مع جماعة غلمان القصر أن كاتبوا الفرنج مستدعين لهم إلى مصر ليساعدوهم على إخراج الملك الناصر وأصحابه من مصر، وبعثوا بالكتاب مع إنسان خفية ، فاتفق أن بعض التركمان رأى ذلك الإنسان ومعه نعلان جديدان فاستنكرهما، وأخذ النعلين منه على سبيل الامتحان وجاء به إلى الملك الناصر، فأمر بفتق النعلين فوجد في طباقهما خرقاً مكتوبة، وإذا فيها مكتوب من القصر إلى الفرنج يستدعونهم إلى قتال الملك الناصرفقال الملك الناصر: دلوني على كاتب هذا الخط، فدلوه على رجل يهودي، فأحضره، فلما رأى الكتابة تلفظ بالشهادتين خوفاً من العقوبة، واعترف أن الخط خطه، وأن مؤتمن الخلافة أمره بكتابة ذلك، فأطلقه الملك الناصر لا سلامه، وأخفى الملك الناصر ذلك وجعل مؤتمن الخلافة لايخرج من القصر، وإن خرج لايبعد، فخرج يوماً متنزهاً ظناً منه أن ما فعله نسي، فبعث الملك الناصر جماعة قتلوه وأخذوا رأسه، ولما قتل مؤتمن الخلافة غضب السودان لقتله، وتجمعوا في خلقٍ كثير يزيدون على خمسين ألفاً، وكانوا ذوي شوكة ما تمالؤوا على وزيرٍ إلا قتلوه، فباشر الملك الناصر صلاح الدين قتلهم بنفسه وعساكره، فقتلهم واستباح دماءهم، وهرب من سلم منهم، وكان لهم محلةً كبيرة على باب زويلة تسمى المنصورة، فأمر الملك الناصر بتعفية أثرها فخربت ، وجعلت بستانا.

ودخلت سنة خمس وستين

فيها: كانت الزلزلة العظيمة المعروفة بزلزلة حلب، حدثت في بكرة يوم الاثنين ، ثاني عشر شوال، بعد طلوع الشمس، وتعرف في الشام بزلزلة حلب، لأن تأثيرها في حلب أكثر من بقية البلدان، وهلك تحت الردم بحلب على ما روي خمسة عشر ألف آدمي، واضطربت قلعة بعلبك، وتهدم بعضها، وتهدم حصن شيزر، وجانب من قلعة حماه، وقطعة من حصن الأكراد، وحصن بارين ، وانشقت منارة حلب، وانشق جبل لبنان شقاً عظيماً مسيرة ثلاثة أيام ، وروي أن طوله لايعرف له منتهى، وقيل إنها عمت أكثر الأرض حتى جاءت من سبتةمن بلاد المغرب، وفيها نزل الفرنج دمياط في مستهل صفر، فأقاموا عليها أحدا وخمسين يوماً، ثم رحلوا عنها خائبين، وفيها توجه الأوحد نجم الدين أيوب، والد الملك الناصر صلاح الدين إلى مصر، ولما عزم على ذلك فرق جميع أمواله وأملاكه، ولم يكن له سهم في ملك له فيه شريك إلا وهب شريكه سهمه، ولم يستصحب معه شيئاً من موجوده، بل أطلقه، وعجب الناس من فرط كرمه وسخائه، فلما قرب من مصر خرج للقائه العاضد بنفسه، والملك ، ومن دونهما، وكان يوماً مشهوراً، ودخلها في رابع وعشرين رجب من السنة ، وفيها حاصر نور الدين محمود سنجار وأخذها صلحاً بعد قتال شديد.

ودخلت سنة ست وستين وخمسمائة

فيها: أمر نور الدين محمود ببناء الجامع النوري، المعروف بالجامع العتيق بالموصل، وفيها توفي المستنجد بالله في تاسع ربيع الآخر من السنة، فكانت خلافته إحدىعشرةسنة وسبعة أيام، وخلف من الولد أبا محمد حسن المستضيءبأمر الله، وأبا القاسم، وكان رحمه الله عالماً حسن المحادثة، كثير الفكاهة، قال الشيخ أبو الفرج بن الجوزي رحمه

الله: حـدثني ابن شبيب قـال: لقيني أمير المؤمنين المستنجد باللـه فقال مصحفاً علي: أين شتيـت؟ فقلت مصحفا: عندك يـاأمير المؤمنين، وهذا أحسن ما يكـون من التصحيف، وأراد المستنجد بقوله: أيـن شتيت، ابن شبيب كـأنه يناديه، فـأجابه ابن شبيـب بقوله: عندك، أي عبـدك ياأمير المؤمنين.

خلافة المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن بن المستنجد بالله

بويـع بالخلافـة يوم وفاة أبيـه في تاسع ربيـع الآخر، سنـة ست وستين وخمسمائة، وكان عـالماً فاضلاً ذا سياسـة وتدبير، أظهر العـدل والإحسان، ورد أملاكـا كانـت غصبت إلى مـلاكها، ونشر العـدل والانصاف، وأمـر مناديا ينادي بكشـف الظلامات، وفيها جهز نور الديـن محمود بن زنكي الشيخ شرف الدين أبا سعد عبـد الله بن محمد بن أبي عصرون رسولاً إلى المستضيء مهنيا له بالخلافة.

ودخلت سنة سبع وستين

فيها مات العاضد صاحب مصر في يـوم عاشوراء، وكان صلاح الدين أمر بالخطبة للمستضيء بأمر اللـه في أول جمعة من المحرم بمصر، ثم مات العاضـد بعده بيوميات، ثـم خطب للمستضيء بـالقاهرة في ثـاني جمعة ، وانقضت دولة المصريين، وتسلم صلاح الـدين القصر بما فيه من الأموال والـذخائر، وقبـض على جميع أهـل العاضـد وولده وأقـاربه، وجعلهـم في موضـع، وأجرى عليهم مؤنتهـم. وفيها وردت البشائر من الملـك الناصر صلاح الديـن إلى نور الدين محمود بـإقامة الدعوة المستضيـة والخطبة له، وموت العاضد، فـاشتد سرور نور الدين، وجهز شهاب الـدين أبا المعالي المطهر بـن الشيخ شرف الـدين بـن أبي عصرون رسولاً إلى بغـداد، مبشراً بالدعوة القائمة بمصر، والخطبة للدولة العباسية في الخلافة المستضية.

وفيها ولد الملك المنصور أبو المعالي محمد بن عمر بن شاهان شاه بن أيوب في ذي الحجة ، وفيها ولد الملك العزيز عثمان بن الملك الناصر صلاح الدين.

ودخلت سنة ثمان وستين

فيها توفي الملك الأوحد نجم الدين أيوب والد الملك الناصر صلاح الدين يوسف، في سابع عشرين ذي الحجة، ودفن إلى جانب أخيه أسد الدين شيركوه، ثم نقلا بعد سنتين إلى المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، فدفنا بها.

ودخلت سنة تسع وستين

فيها : توفي الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي، رضي الله عنه، في شوال بدمشق، ودفن بها، وكان رزؤه عظيما في ركن المسلمين، بعد أن أثر في الاسلام المآثر الحميدة، والآثار الجميلة، وهي أشهر من أن تذكر ، ولما توفي رثاه العماد الكاتب الأصفهاني فقال:

عجبت من الموت كيف اهتدى
إلى ملك في سجايا ملك
وكيف ثوى الفلك المستدير
في الأرض والارض وسط الفلك

وصدروا كتابا من ولده الملك الصالح اسماعيل تعزية إلى الملك الناصر صلاح الدين، انشاء العماد الكاتب، ثم توجهوا بالملك الصالح إلى حلب صحبة الأمير كمشتكين، وسابق الدين عثمان، واسماعيل بن الخازن.

وفيها فتح شمس الدولة ابن أيوب اليمن بعساكر الشام، وقبض على مدعي الخلافة بها يومئذ، رجل يسمى عبد النبي بن علي بن المهدي.

ودخلت سنة سبعين

فيها كاتب كمشتكين، وسابق الدين عثمان، واسماعيل الخازن الأمير سيف الدين غازي، صاحب الموصل في تسليم حلب إليه، واستحثوه سراً، وكان ذلك بوضع من الأمير شمس الدين بن المقدم ورجالته، فبلغ الملك الناصر صلاح الدين ذلك، فخرج من مصر إلى الشام، ووصل إلى دمشق فتسلمها، ثم خرج إلى حمص، فعصت قلعتها عليه فتوجه إلى حماه فتسلمها في جمادى الآخرة من السنة ، وسار إلى حلب ، فحاصرها جميع الشهر، ولما أشتد الحصار عليهم استغاثوا بالاسماعيلية، ووعدوهم، فجاء منهم جماعة ، فعرفهم الأمير ناصح الدين خمارتكين، فقتلوه وقتلوا جماعة من الناس، ثم قتلوا عن آخرهم. وعاد الملك الناصر إلى حمص، فنزلها ونصب عليها المجانيق، وحاصرها بقية شهر رجب وتسلمها في شعبان بعد قتال شديد، ثم توجه إلى بعلبك فتسلمها أول شهر رمضان، ثم عاد إلى حمص.

وأما الحلبيون فإنهم خرجوا جميعهم إلى حماه وحاصروها حصاراً شديداً، وتقدم الملك الناصر إلى حماه فنزلها، وتزاحف الفريقان، ونصر الملك الناصر عليهم، وتعرف هذه الكسرة بكسرة المواصلة عند قرني حماه، ولما كسروا أمر الملك الناصر بحقن دمائهم، ونهب أموالهم، ثم تقدم إلى تل السلطان من عمل حلب، ووقع الصلح بينه وبين الحلبيين على أن يكون ما بيده من الشام إلى آخر بلد حماه والمعرة وكفر طاب مضافتان إليه، وحلفوا على ذلك، وعاد الملك الناصر إلى حماه، فنزل عليها، ووصلته رسل المستضيء بالله بالتهنئة بالظفر والتشريفات السنية،

والتحف الجليلة، وأفيض على الأمير ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه خلعة جميلة ، أفردت له من الديوان العزيز.

ثم تجهز الملك الناصر إلى حصن بارين ففتحه بعد حصار شديد، وأقطع حماة خاله شهاب الدين محمود، وأنعم بحمص على الأمير ناصر الدين محمد، وتوجه إلى دمشق.

ودخلت سنة احدى وسبعين

فيها تجهزت المواصلة ووافوا تل السلطان، في جمع عظيم، فخرج إليهم الملك الناصر في جمع قليل، والتقوا بتل السلطان، وألقى الله على المواصلة الرعب، وقذفه في قلوبهم، فولوا مدبرين، واستولى الملك الناصر عليهم أسراً ونهباً، وحقن دماءهم، واستولى على سرادق سيف الدين غازي، ونزل فيه، ثم أحضر أسراهم، وخلع عليهم وأطلقهم.وفيها: فتح الملك الناصر منبج، واستولى عليها بعد كسره المواصلة بتل السلطان.وفيها فتح حصن أعزاز، بعد أن هزمت المواصلة ، وحاصره ثمانية وثلاثين يوماً.وفيها قفز على السلطان قوم من الحشيشية، وجرحه واحد منهم في وجهه، وكان ذلك في حصار عزاز، وقتلوا عن آخرهم.

وفيها عاد شمس الدولة من اليمن إلى الشام، بعد أن قتل ناشر بن بلال صاحب عدن، وفيها هدم أمير الحاج كمشتكين حصن أبي قبيس بمكة.

وفيها مات نجم الدين بن حسام الدين ايلغازي بن أرتق، وجلس ولده قطب الدين مكانه. وفيها قتلت الاسماعيلية أبا صالح بن العجمي بحلب في يوم الجمعة بباب الجامع الشرقي. وفيها توفي شيخ الاسلام هبة الله بن البوقي، المفتي الشافعي الواسطي، صاحب القاضي أبي علي الفارقي.

ودخلت سنة اثنتين وسبعين

فيها مات السلطان طغريل بن مسعود.

وفيها حاصر الملك الناصر حلباً مديدة، ثم وقع الصلح العام بينهم وبين المواصلة وبينه، وأبقى الملك الناصر حلباً في يد الملك الصالح اسماعيل، ورد عليه حصن أعزاز، وعاد الملك الناصر إلى مصياف، ونصب عليها المجانيق، وأباح قتلهم وتخريب ديارهم، فتضرعوا إلى خال الملك الناصر شهاب الدين محمود بن تكش، فسأل فيهم، فرحل عنهم، ثم توجه إلى دمشق، ومضى إلى مصر ، وأمر ببناء السور الأعظم المحيط على القاهرة ومصر، وبانشاء القلعة بجبل المقطم، وببناء المدرسة على تربة الشافعي رحمة الله عليه، وفوض نظرها إلى الشيخ نجم الدين الخبوشاني، ثم توجه الملك الناصر في هذه السنة إلى الاسكندرية لسماع الحديث على الحافظ السلفي رحمه الله، فكان يتردد إليه لسماع الحديث في يوم الخميس ويوم الجمعة ويوم السبت ، فأقام لذلك مدة، ثم عاد إلى مصر. وفيها توفي قاضي القضاة كمال الدين بن الشهرزوري، قاضي دمشق.

ودخلت سنة ثلاث وسبعين

فيها كانت نوبة عسقلان والرملة: خرج الملك الناصر للقاء الفرنج، فنزل عسقلان وسباهم وقتل جمعاً منهم، ثم استقل بالرملة طالباً بلاد الفرنج، فخرجت الفرنج على المسلمين، وجرى بينهم قتال عظيم هلك فيه جمع من المسلمين، وضلوا عن الطريق، وماتوا جوعاً وعطشاً، وأسر الفرنج الفقيه عيسى وأخاه ظهير الدين علي، وأقاما أسيرين سنتين حتى افتداهما الملك الناصر بسبعين ألف دينار، ودخل الملك الناصر إلى القاهرة وقد دفع الله سبحانه عنه بلاءه ، بعد أن أشرف على الهلاك.وفيها توفي شهاب الدين محمود بن تكش خال الملك الناصر.

ودخلت سنة خمس وسبعين

فيها توفي المستضيء بأمر الله في أول ليلة من ذي القعدة، فكانت خلافته تسع سنين ونصف وواحد وعشرين يوماً، وخلف من الأولاد الامام الناصر لدين الله أبا العباس أحمد، وأبا منصور.

خلافة الامام الناصر لدين الله تعالى أبي العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله

مولده في سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة، بويع في أول يوم من ذي القعدة سنة خمس وسبعين، وكان المتولي لعقد البيعة ذو الرئاستين مجد الدين أبو الفضائل بن الصاحب استاذ الدار ، وظهير الدين أبو بكر بن العطار، صاحب المخزن، ثم بعد ثلاثة عشر يوماً، قبض على ظهير الدين أبي بكر، ثم مات بعد أيام قلائل، فمضت أخته لتدفنه ليلا خلسة من الناس لشدة بغضهم له أنه ضمن جهات المكوس، وكان يمنع من نقل الغلال في سني المحل، فلما خرج تابوته من باب النوبي علم به بعض العوام، فألقوه عن رأس الحمالين، وكسروا التابوت، ومزقوا أكفانه وربطوا في رجله حبلاً وسحبوه في الأسواق، وقطعوا خنصره وأذنه، وذلك في نصف ذي القعدة.

وفيها استدعى الامام الناصر لدين الله فخر الدولة بن المطلب، وطلب منه أن يستوزره لعلمه وورعه، وكان المستنجد والمستضيء طلباه للوزارة فامتنع، فلما حضر بين يدي السدة الشريفة قبل الأرض وخدم وقال: ياأمير المؤمنين المملوك رجل شيخ ما يجوز له أن يفتح كتاباً بعد العصر، فقال له بهاء الدين صندل الخادم: أجب أمير المؤمنين، فقال: له فخر الدولة : ليس لك في اجابتي مصلحة لأنني لو قبلت هذه الولاية ما كنت أقرك على ما بيدك من الاقطاع والولايات، بل كنت أجريك على

قاعدة بلال الحبشي، وأزيل عنك هـذه الثياب وأمنعك من الركوب وبين يديك سيـوف مشهورة ، فضحك الامام الناصر وأعفـاه وقال:تشير علينا بمـن يصلح، فقـال: هذا يصلـح، وأشار إلى مجد الـدين بـن الصاحـب فضاق صدر مجد الدين لقوله وقـام، فقال له الامام الناصر: لم لا يرضيك قـوله والـوزارة أرفـع درجات أربـاب الـدنيا؟! فقال: يـامـولانا لا أبيـع حضوري في هـذه الخدمة بـالدنيا ومـا فيها، وسـأل أن يقر على خـدمته، فأقره عليها، وقال لفخر الدولة بـن المطلب: أشر علينا بمن نوليه، فقال: إن رأى مـولانـا أن يـولي سليمان بـن جـاووش نـائب وزارة، فـرأيـه أولى وأعلى، فأمر الامـام الناصر باحضار سليمان بن جـاووش، ويلقب بحسام الدين، فأحضر، وخلع عليـه ورتب نـائب وزارة فـأقـام كـذلك أشهـرا.

ودخلت سنة ست وسبعين وخمسمائة

فيها حسـن مجد الدين بـن الصاحب لـلامام الناصر عـزل سليمان بن جاووش لكبر سنـه، وتقدم إليـه الامام النـاصر أن يستبدل بـه من شـاء، فأحضر مجد الدين بن الصاحب جلال الدين أبا المظفر هبـة الله بن محمد ابن البخـاري وولاه نائب وزارة. وفيها تصدق الامـام الناصر بعشرة آلاف دينـار في شهـر رجـب على الفقهـاء والعلماء والصـوفيـة ببغـداد وأثبـت أساميهـم في دستور ، وقرر ذلك في كـل رجب في كل سنة، وجعـل ذلك عوضاً عـن دعوة كانت الخلفاء تـأمر بعملها للمذكوريـن في كل سنة في رجب في دار دفن المستضيء بها.

وفيها أسقـط الامام الناصر ببغداد وجميـع بلاده من المكـوس والحقوق المضروبة على التجار وأربـاب الصنائع والمؤن، وكان قدر مـا يحصل منها في كل سنـة ما يزيد على مـائة وخمسين ألف دينار، وبسـط العدل ونشره، وأمر بكسر الملاهي وإراقة الخمور، وإقامة الحدود.

وفيها توجه الملك الناصر صلاح الدين إلى بلاد الأرمن وبلد الروم ، فنزل على حصن يقال له المناقير ببلاد الأرمن ، ففتحه ثم هدمه، وصاحب الأرمن يومئذ ابن لاون، ثم وقع الصلح بينهم على خمسمائة أسير من المسلمين أطلقهم ابن لاون، وعاد الملك الناصر إلى حمص فنزل عليها، وأتته رسل الحلبيين مهنئين له بالنصر والظفر، وأتته رسل الامام الناصر شيخ الشيوخ صدر الدين أبو القاسم عبد الرحيم، وشهاب الدين بشير الخادم، فاجتمعا بالملك الناصر بدمشق ومعهما التفويض والتقليد والتشريف له بتقليد السلطنة والزعامة فركب الملك الناصر بالتشريف، وكان يوماً مشهوداً، ثم أعاد الملك الناصر شهاب الدين بشير الخادم إلى بغداد وأصحبه رسولاً معه وهو القاضي ضياء الدين بن الشهرزوري جواباً عن رسالة شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم، وجعل الملك الناصر شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم عنده، ثم سار الملك الناصر ومعه شيخ الشيوخ إلى الديار المصرية، لزيارة قبر الامام الشافعي، فلما قضى زيارته توجه إلى مكة حرسها الله تعالى.

وفيها مات شمس الدولة بن أيوب بالاسكندرية في مستهل صفر، وفيها بنيت قلعة القاهرة.

ودخلت سنة سبع وسبعين

فيها توفي الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود بن زنكي. وفيها وصل إلى حلب عز الدين مسعود صاحب الموصل، فاستولى عليها وعلى خزائنها، ورغب أخاه عماد الدين زنكي صاحب سنجار في حلب، وتعوض منه عنها سنجار لعلمه أن أمره لايستقر بحلب، ولما بلغ الملك الناصر ما جرى في أمر حلب ، قلق لذلك ، وكان بالديار المصرية ، فكتب إلى الملك المظفر تقي الدين وكان بحماه يأمره بالتوجه إلى حلب، وكتب كتابا إلى الديوان العزيز يشكو صاحب الموصل وما فعله ،

وطمعه في أخذ حلب، وذكر عصيانه ومساويه، وعرض في كتابه بأن هذا الذي صدر منه لايصدر إلاّ عن اذن شريف، وسأل فيه ردعه وزجره وازالة يده عن حلب.

وفيها بعث الملك الناصر أخاه ظهير الدين سيف الاسلام طغتكين إلى اليمن، فتوجه إليها بجيوشه ، وكان والي عدن يومئذ الأمير عثمان الزنجيلي، ووالي زبيد الأمير حطان بن منقذ، فأما عثمان فإنه فارق اليمن وهرب منها ، وأما حطان فإنه تحصن بقلعة يقال لها قواريرـ ثم راسل سيف الاسلام في ذهابه إلى الشام،فأذن له، فجمع حطان أمواله وذخائره وغلمانه وتوجه نحو الشام، فجهز سيف الاسلام إليه من قبض عليه، وعلى سائر ما معه، ثم قتل حطان، وأخذت جميع أمواله، وكان قيمه المأخوذ على ما قيل من ذهب وفضة وجواهر ويواقيت وآلات وأمتعة ألف ألف دينار.

وفيها أو في التي قبلها توفي سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود ابن أتابك الشهيد صاحب الموصل ، وملكها أخوه عز الدين مسعود. وفيها خرجت الفرنج في مراكب من إيلة وسارت إلى عيذاب ثم إلى جدة، وأخذت عدة مراكب من المسلمين، فتعقبهم الحاجب (لؤلؤ) في المراكب إلى الحجاز، فأخذهم أجمعين، وكانوا ألفاً وخمسمائة نفر، وعاد بهم إلى القاهرة ، فضرب رقابهم أجمعين.

وفيها مات الخطيب هاشم خطيب حلب، وكان عنده علم وافر ودين ظاهر، وله مصنفات في علم القرآن وغيره.

ودخلت سنة ثمان وسبعين

فيها برز الأمر الشريف أن لا يستخدم ذمي في جهات التصرف ، لأن الله نهى أن يكون للكافر على المسلم سبيل، فلا يستخدم أحد من

الكفـار في شيء من أعمال الـديـوان، ويرتـب عوضهـم مـن يصلح مـن المسلمين، وكان كاتب ديوان العرض ذميا يعـرف بابن الأشقر، فشفع ابن البخاري فيـه، فكتب مطالعـة يصف فيها ثقته وأمـانته وكفايتـه، ويشفع به، فوقع الامام الناصر عليها: هـذا ابن الاشقر قد مات، فما الذي يصنع بعده في ديـوان العرض، فعرض على ابن الأشقـر الاسلام فامتنـع، فعزل، وكان لابـن الأشقر ولد بـالغ، فدخل على ابـن البخاري وهو جـالس في الديوان، فقال: يـامولانا أنا رجل قد رغبت في الاسـلام لأجل خدمة أمير المؤمنين، وأنا أشهـد أن لا إله إلاّ الله وأشهـد أن محمداً رسـول الله، وأن كل دين غير دين الاسـلام باطل، فكتب ابن البخاري مطـالعة بما جرى، فوقـع أمير المؤمنين فيها: إنما منعناه من استخـدام الكفار لكفرهـم، فمن أسلم يعـاد إلى خدمته، ويخلـع عليه ويستخـدم في ديوان العرض عـوضا عن أبيـه، ويقال لكـل من صرفنـاه من خـدمتنا: مـن أحب الـدخول في الاسلام فيعاد إلى خدمته ويشرف ومن لم يفعـل لايمكن من خدمة تتعلق بنا ، والسلام.

وفيها أحضر الامام الناصر الشيخ عبد الجبـار صاحب الفتوة، وأعطاه خمسمائة دينـار وخلع عليـه وعلى ولـده شمس الـديـن، وكـان هذا عبـد الجبار شيخـاً حسناً لـه أتباع كثيرون، ثم تفتـى إليه بعـد ذلك خلـق من الملوك والأكابر ، وكان هذا الفعل مستحثا للناس على التعاضد والتناصر وحفظ العهد، وكتمان السر، وصدق اللهجة، والعفـة عن المحارم، وأرباب الفتـوة يسندونها بعنعنـة إلى أمير المؤمنين علي كـرم اللـه وجهه، ونـاهيـك بذلك شرفاً ، وفخرا وعظمة وقدراً.

ودخلت سنة تسع وسبعين

فيها مـازال الملك النـاصر مقيما بالـديار المصريـة إلى المحرم مـن هذه السنة، فخـرج إلى دمشق، ثـم خرج بجيـوشه غـازيا إلى طبريـة وبيسان،

فجرى بين المسلمين وبين الفرنج قتال شديد استشهد فيه جماعة من أبطال المسلمين، وقتل من الفرنج خلق لايحصون ، ثم خرج الملك الناصر طالباً حلب، فلما فارق حماه وصل إليه مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي بن كوجك، فأشار عليه بقطع الفرات وأخذ ما وراءه من الموصل ونصيبين والخابور وحران والرها، ثم بعد ذلك يحاصر حلب ويتملكها، فشكره الملك الناصر على رأيه وتوجه إلى الرها ففتحها، ثم سار إلى حران ففتحها، ثم فتح الرقة بعد حصار، ثم فتح عربان، ثم سار إلى نصيبين ففتحها بعد حصار ، ورتب هذه البلاد وأزال ما بها من المكوس، ثم توجه إلى الموصل، وأناخ بها بجميع عساكره، وصاحبها يومئذ عز الدين مسعود، ونائبه مجاهد الدين قايماز، فكاتب عز الدين مسعود الديوان العزيز باستصلاح أمره مع الملك الناصر ، فجهز الامام الناصر شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرحيم رسولاً إلى الملك الناصر وشفيعا في المواصلة، وصحبته شهاب الدين بشير الخادم، وخاطب شيخ الشيوخ الملك الناصر بالشفاعة ، فصرح الملك الناصر بالامتناع وعدم القبول، وأدام الحصار وتهيئة أسبابه، وأصحاب الملك الناصر يقاتلون ، وشيخ الشيوخ ينهاهم عن القتال، ثم أتى شيخ الشيوخ الملك الناصر وقال: أتيتك مستشفعاً، فقال: السمع والطاعة، ثم خرج من الموصل جمال الدين محاسن، ومجد الدين الشريف نقيب الطالبيين، وأتيا شيخ الشيوخ، فبعث للملك الناصر يطلب منه ثقة يسمع كلامهما، فبعث إليه القاضي الفاضل والفقيه عيسى بن محمد، فأقاموا يوما لم يحصل فيه مقصود، ثم أقاموا كذلك قريب شهر يمضون الأوقات، وغرضهم مكاتبة الملوك سراً، والاستنجاد بهم، وأجابوا إلى تسليم حلب إلى الملك الناصر بشرط أن يعيد إليهم ما أخذه من بلادهم، فتوقف الملك الناصر في الاجابة، ثم أجاب ، ثم بعد اجابته عادوا ندموا في قولهم إنهم يسلمون إليه حلب، وآخر الأمر أن الملك الناصر قال لشيخ الشيوخ : نحن قد عزمنا على الرحيل، ونهب لهم الموصل شفاعتك فيهم، وهذه

أشهر شريفة ، ثم رحل إلى سنجار ومعه رسل الخلافة ، فنازلها في شعبان، ونصب عليها منجنيقاً، فلما دخل شهر رمضان أمر بالاحجام عنهم، والاحتراز من اراقة الدماء، ثم راسلوه في تسليمها إليه، فتسلمها منهم، وأسقط عنهم المكوس، وتجهز شيخ الشيوخ وأصحابه للمضي إلى بغداد، وأصحبهم الملك الناصر تحفاً وهدايا سنية، وعاد الملك الناصر إلى حران، فنزل بها، وأما المواصلة فانهم تجمعوا، ونجدهم شاه أرمن ملك أخلاط بنفسه وعسكره، وخرجوا من الموصل، ووافوا حرزم، ضيعة من ضيع ماردين، ووافاهم عسكر حلب والياروقية، وصاحب ماردين، وصاحب أرزن، وصاروا في جمع عظيم، فلما علم الملك الناصر بهم كتب إلى أمرائه الغائبين، فوصل إليه الملك المظفر تقي الدين من حماه في خمسة أيام، وسار إلى رأس العين، فلما سمعوا خبره ولوا منهزمين من غير قتال، وذلك في يوم عرفة من السنة المذكورة، ومضى صاحب أخلاط إلى بلاده، وكل ملك مضى إلى ملكه.

وكان الملك الناصر قد كتب إلى الإمام الناصر، طلب منه اذنا في قصد آمد وأخذها، فوصله تقليد بها، فتوجه الملك الناصر إلى آمد فنزلها في سابع عشر ذي الحجة من السنة، وحاصرها حتى دخلت سنة ثمانين ففتحها، وتملكها في المحرم منها، وعاد إلى حلب ونازلها وحاصرها، وجرت حروب كثيرة، وأصيب في هذه السنة على حلب تاج الملوك أخو الملك الناصر بسهم مات منه، ثم اصطلح الملك الناصر وعماد الدين زنكي بن مودود على أن يعوضه عن حلب سنجار ونصيبين والخابور ، وكتب الملك الناصر خطه بذلك، وتسلم حلب في ثاني عشر صفر سنة ثمانين، ومدحه القاضي محيي الدين بن زكي الدين قاضي دمشق بقصيدة قال فيها:

وفتحكم حلبا بالسيف في صفر
مبشراً بفتوح القدس في رجب

ووقع هـذا بطريق الاتفـاق وسوق العـافية. ولما فتح القـدس في رجب من سنـة ثلاث وثمانين قيل لـه في ذلك، فقال: سـاقتني القافيـة، وفوض الملك الناصر إلى محيي الدين ابن زكـي الدين قضاء حلب، فحكم فيها، واستناب بها نـائبه زين الـدين نبأ بن الفضـل بن سليمان بن البـانياسي، وأسقط الملك النـاصر مكوس حلب وضرائبها، ثم توجـه بنفسه إلى حارم ففتحها، وأخذها من مملوك من المماليك النورية كان قد عصا فيها.

وفيها مـات فخر الـدولة بـن المطلب، وكـان أوحد زمـانه علماً وورعـا وزهـدا ورئاسة ، وعمـر مـدرسـة تسمى دار الـذهـب ببغـداد، وجامعـاً وخانكـاه، ووقف على ذلـك وقوفـاً سنيه. وفيهـا مات الأمير أبـو منصور أخو الامام النـاصر، وغسله العدل الحراني وأخذ سلبه، وكان مـن جملة ما أخـذه مسند زركـش، وطراحـة زركش فيهـا ألـف دينار، وأخـذ جميع مـا استعمل في غسله مـن طاسات فضة وطشت فضـة، وآلات وأمتعة، قيمة الجميع على ماروي عشرة آلاف دينار.

وفيها حضر شهاب الدين الطوسي الفقيـه الشافعي دار مجد الدين أبي الفضل بن الصـاحب، واتفق الحديث أن علي بـن أبي طالب ـ كـرم الله وجهه ــ ما ملك من الـدنيا شيئاً، وكان فقيراً، حتـى أنه كان يأكـل خبز الشعير، فقال الطـوسي: هذا مـا يقولـه ذو معرفـة، قد نقـل أن عليا أدى زكاة أربعين ألـف دينار، وكـانت له نعمـة ومال كثير، وإنما المبغضـون له يقولـون هذا، وقصـد الطوسي بهذا مهادنـة مجد الدين، فـإنه كـان يبغض الطوسي، ويقصـد اهلاكـه لأنه كان صـاحب ابـن العطار، فقـال له مجد الديـن: فكيف مـدح علي عليه السلام على إيثـاره خبز الشعير، وتصـدقه بخاتمه في الصلاة؟ فقال الطوسي:هذا كان في ابتـداء حاله، ثم ملك بعد ذلك ، فقال له مجد الدين: أريد أن أقف على هذا النقل ومن الذي نقله، فقال لـه سمنديـار الواعظ: لم يسمـع هذا قـط، فقال لـه الطوسي: يجوز أنك مـا سمعته، وخـرج وقد علم أنـه خاطـر بدمـه، وبلغ أمير المؤمنين

الامام الناصر ذلك فأنكر على مجد الدين كيف لم يكلف الطوسي احضار الحجة، وأظهر الطوسي المرض أياماً، واشتد الأمر في اظهار التشيع حتى روي أن الشيخ أبا الفرج بن الجوزي قال يوماً: ما اكثر ما يسألوني عن معاوية ويزيد ويكلفوني شرح أحوالهم، أما يكتفون مني في هذه الأيام أن أزاحم لهم بأبي بكر وعمر، وأنا مخاطر، وعلم الطوسي بخطابه، فاستأذن في الحج، فأذن له، فحج ومضى إلى الديار المصرية.

ودخلت سنة ثلاث وثمانين

فيها برز الملك الناصر صلاح الدين إلى بلاد الفرنج، فترك ولده الملك الأفضل على رأس الماء، فجمع العساكر، وتقدم الملك الناصر إلى الكرك والشوبك، فقطع شجرها وزرعها، وبعث الملك الأفضل عساكره إلى صفورية للغارة، ومقدمهم مظفر الدين بن زين الدين، فخرج الفرنج إليهم، والتقوا وكانت الكرة على الفرنج، وقتل منهم خلق عظيم، وسار الملك الناصر حتى خيم على عشترا، ووصل الملك الأفضل إليه، وجمع الملك الناصر العساكر، ومضى إلى طبرية ففتحها، واحتمت عليه قلعتها وصاحت الفرنج عن يد واحدة، وركبوا قاصدين منع طبرية، وجرى قتال كانت الغلبة فيه للمسلمين، وأما الفرنج فأووا إلى جبل حطين معتصمين به، وأحاطت جيوش المسلمين بهم، فلما أحس القومص بالكسرة انهزم وحده ومن بعده أتباعه، واحتوى المسلمون على بقية الفرنج أسراً وقتلاً.

وجلس الملك لعرض الأسرى، فقدم إليه ملك الداوية والملك كي وأخوه جفري، وأوك صاحب جبيل، وهنفري والابرنس أرناط صاحب الكرك، وكان الملك الناصر قد نذر دم صاحب الكرك هذا، فقرعه الملك الناصر على غدره وكذبه، وكان ملك الفرنج قد اشتد عطشه، مع ما عنده من خوف القتل، فأحضر له السلطان ماء بثلج،فشربه الملك

وسقى صاحب الكرك منه، فقال لـه الملك الناصر: لِمَ لَمْ تأخذ مني اذنا في سقيـه، فـلا أومنـــه، ثـم مضـى الملـك النـاصر إلى سرادق ضرب لـه ، واستدعـى بصاحب الكرك، فلما استقبلـه قام الملك الناصر إليـه، وضربه بيده بالسيف فحـل عاتقه، وأمر بقطع رأسه ، فقطع ، فـارتاع الملك من ذلك، وعرف الملـك الناصر ما حل بـالملك من الخوف والفزع فـاستدعاه وأدناه وقال له: صاحب الكرك غدر ونكث ففعلت به هذا.

وتعـرف هـذه الكسرة بكسرة حطين، وأخـذ منهـــم السلطـان صليـب الصلبوت وكان أخذه أعظـم عليهم من جميع ما حل بهم، ثـم نزل الملك الناصر على طبريـة، وبقلعتها صـاحبتها الســت، فتسلمها الملـك الناصر منها بأمـان، وخرجت الست آمنة إلى طـرابلس بلد زوجها القـومص، ثم رحـل الملك النـاصر إلى عكـا، فخيم قـريباً منهـا في سلـخ ربيع الآخـر، فخرج أهـل البلد إليـه يطلبون الأمان، فـآمنهم وخيرهـم بين المقام آمنين والانتقـال، وأمهلهم أيـامـا، ولما دخل جنـد الاسلام إليهـا نـزلوا آدرهـا، وجعل الملك الناصر للفقيه عيسى كلما يتعلق بـالداوية من منازل وضياع بها فيها من غـلال ومتاع ، ووهب ولده الأفضل عكـا، ودخلها المسلمون في يـوم الجمعـة مستهـل جمادى الأولى، فـأقـامـوا الجمعـة بها بكنيستهـا العظمـى، وخطـب الخطبـة جمال الـدين عبـد اللطيـف بـن الشيـخ أبي النجيب السهروردي، وتولى القضاء والخطابة بها.

وأقام الملك الناصر مخيما بباب عكـا، ووصل الملك العادل من مصر ، وبث الملك النـاصر عساكره لفتح الساحـل، ففتح مظفر الديـن بن زين النصرة، وعاد بـالأسرى والأموال، وفتح بدر الـدين دلدرم وغرس الـدين قليج قيساريـة، فتحوها بالسيف، وسـار حسام الدين محمد بـن عمر بن لاجين إلى سبسطية وتسلمها، ووجـد فيها مشهد زكريا عليـه السلام، قد اتخذه القسوس كنيسة نفيسـة مرصعة بآلات المصبـوغات فأخذ مـا به من ذلك، واتخذه مشهـداً، وأقام به منبراً، ثم مضـى إلى نابلس فقاتلهـا حتى

تسلمها بأمان، وفتح في أثناء ذلك قلعة الفولة، ودبورية، وخفسين، وزرعين، واللجون، والطور وبيسان،، والقيمون، وجميع ما لطبرية وعكا من الولايات. وفتح الملك المظفر تقي الدين تبنين بأمان في ثامن عشر جمادى الأولى، وبعث صاحب صيدا مفاتيح صيدا، وفتحت بيروت، وجبيل، وعسقلان، والداروم، بأمان بعد قتال شديد، واستشهد من الأمراء ابراهيم بن حسين النهراني، وتسلم المسلمون الرملة، وبيت لحم، والخليل، وحصن الداوية، والنطرون، وبيت جبريل.

ثم رحل الملك الناصر إلى القدس، ونزل عليه، ونصب المجانيق، واشتد عليه الحصار، واجتمع طاغية الكفر وتعاقدوا وتعاهدوا، وجرت حروب كثيرة، فبرز ابن بارزان طالبا الأمان من الملك الناصر، فامتنع الملك الناصر من إجابته، فقال ابن بارزان: إذا لم تؤمنا، فنقاتل قتال الدم، ونحرق الدور، ونخرب القبة ونقطع الصخرة، ونقتل كل من عندنا من المسلمين الأسرى، وهم ألف، ونتلف ، ولا فائدة لكم في هذا الشح، فاستشار الملك الناصر أمراءه، واستقر الأمر على أخذ قطيعة قررت على كل رجل: عشرة دنانير، وعلى كل امرأة : خمسة دنانير، وعلى كل صغير ديناران، وبذل ابن بارزان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار، وسلموا البلد يوم الجمعة سابع عشر من رجب من السنة المذكورة، وهي سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة على هذه الوظيفة، وكان بالقدس أكثر من مائة ألف انسان من رجال ونساء وصبيان، ووكل بكل باب أمير يحصي الخارجين، ولو حفظ هذا المال لفاز منه بيت المال بأعظم حظ، لكن وقع التفريط، وعم التخليط، فكل من رشامشى، فمنهم من أدلي من السور بالحبال، ومنهم من حمل مختفيا في الرحال، ومنهم من خرج بزي الجند، ومنهم من وقعت فيه شفاعة، وكان بالقدس ملكة رومية مترهبة، لها مال ومتاع وأتباع، فمن الملك الناصر عليها، وعلى كل من معها، وخرجت بذلك، وكذلك زوجة الملك المأسور، ابنة الملك أماري، كانت مقيمة بالقدس مع مالها من الأموال والخدم، فخرجت بمن معها، وكذلك الابرنساسية

ابنة فليب أم هنفري أعفيت من الوزن، واستطلق صاحب البيرة زهاء خمس مائة أرمني، ذكر أنهم من بلده، واستطلق مظفر الدين ألف أرمني، ذكر أنهم من الرها، وخان النواب فما ضبطوه، ومع ذلك حصل لبيت المال ما يقارب مائة ألف دينار، وجلس الملك الناصر للهناء على هيئة التواضع ، وهيئة الوقار بين الفقهاء، وأهل العلم والدين، وأخذ القراء في القراءة، والفقهاء في المناظرة ، والشعراء في الانشاد، وروى المحدثون، وتحدث الرواة ، وكثر ضجيج الخلائق إلى الله سبحانه، وتضرعهم إليه بالشكر له، والثناء عليه بما هو أهله.

فلما دخل يوم الجمعة رابع شعبان، رشح أهل الفضل أنفسهم لتولية الخطبة وغيرها، فلما دنا وقت الزوال، أمر الملك الناصر القاضي محيي الدين بن زكي الدين أن يخطب، ففعل وتمم الخطبتين، وصلى بالمسلمين، ثم جلس للوعظ بعد الصلاة زين الدين أبو الحسن علي بن نجا، فوعظ وأبلغ، وكان يوماً مشهوداً، ومجمعاً موروداً، وتنافس ملوك بني أيوب فيما يؤثرونه، ويؤثر عنهم من الأفعال الجميلة، فما منهم إلاّ من تصدق وعمر وبنى وأحسن، فمنهم الملك المظفر تقي الدين ، حضر إلى القبة وكنسها بيده، ثم غسلها بالماء مراراً، ثم أحضر أحمالاً من ماء الورد غسلها به، وفعل ذلك بحيطانها وجدرانها، ثم بخرها بمجامر الطيب. وعين الملك الناصر الكنيسة المعروفة بصندحنة مدرسة، ودار البطرك رباطاً، ووقف عليهما وقوفاً كثيرة، وولى الفقيه ضياء الدين عيسى بن محمد القدس وأعمالـه ،فاستناب فيه أخاه ظهير الدين علي، وجهز الملك الناصر القاضي ضياء الدين بن الشهرزوري رسولاً إلى بغداد، ومبشراً بالفتح.

وتسلم الملك الناصر ما حول القدس من الحصون، وعاد إلى عكا فنزلها في أول شهر رمضان من السنة، وحرضت الأمراء الملك الناصر على قصد صور، وكان أكثرهم تحريضاً الأمير سيف الدين المشطوب، وكانت معه صيدا وبيروت، وخاف من فوتها، ولم يفكر في قوتها، بانتقال

رجال الساحل إليها، وكان المركيس لعنه الله حال اشتغال المسلمين بالقدس، قد أحكم صور ، وحفر لها خندقاً من البحر إلى البحر، فرحل الملك الناصر بجيوشه قاصداً صور، فوصلها في تاسع شهر رمضان، وخيم عليها، وجرت حروب كبيرة، فلم يتفق فتح، وهجم الشتاء ، فاتفقت الآراء على ترك القتال حتى ينقضي الشتاء، ويستريح الجند، وتألم الملك الناصر لفوت ذلك،وعاد إلى عكا، وسكن بها، كل ذلك في سنة ثلاث وثمانين.

وفيها: في آخر ليلة من شوال استشهد محمود بن أخي جاولي على كوكب، وكان دائم التهجد ، زاهداً شجاعاً.

وفيها وصل تاج الدين أبو بكر ــ أخو العماد الكاتب ــ رسولاً من الامام الناصر إلى الملك الناصر يعاتب الملك الناصر على احداث أشياء نقلت عنه، منها: أنه نعت نفسه بالملك الناصر، ومنها أنه لما فتح الساحل جهز في الابتداء مبشراً به شاباً جنديا مستحقراً، وكان العماد الكاتب وغيره أشاروا أنه لايمضي مبشراً بالفتح إلاّ رجل كبير مميز، فقال الملك الناصر: نحن ننفذ هذا الشاب الجندي في الابتداء، ثم نرسل بعده رجلاً كبيراً. ومنها أنه لما فتح القدس جهز لبشارته نجاباً، وما يليق إلاّ انفاذ عالم كبير، وإنما نفذ الامام الناصر تاج الدين أخا العماد الكاتب رجاء أن يطلع من أخيه على الأسرار، فإن الكاتب يطلع على أسرار الملك.

فلما وصل تاج الدين أكرمه الملك الناصر، وبالغ، فلما أدى عليه رسالته وقرأها في تذكرته، وكان في ألفاظها غلظة وشدة، قال الملك الناصر: ما أسعدني إذا شرفت بالعتاب، والمملوك ينفعه التأديب، ويزعه التهذيب، على أنني لم أزل في طاعة أمير المؤمنين، ولم أزل في نصرة المسلمين، أما أنا فتحت مصر، ودعوة الداعي قد باضت بها وفرخت، واستأنفت بها تاريخ الدولة العباسية بعد أن كانت سنين بسواها أرخت، أما أنا استخلصت اليمن والساحل، وفتحت البيت المقدس، وأما النعت الذي

أنكر عليّ فهو من عهد الامام المستضيء وقد اشتهر في الآفاق، والآن فكلما يشرفني به أمير المؤمنين من السمة فهو اسمي الذي أتشرف به ، وإني أفترض طاعة أمير المؤمنين للدين لا للدنيا، وذكر كلاماً طويلاً هذا خلاصته، ثم أعاد تاج الدين بجواب رسالته، ومضى.

وفيها توفي شمس الدين بن المقدم بعرفة، وسببه أن طاش تكين أمير الحج أنكر عليه ضرب الطبل ، فامتنع ، فأمر طاش تكين أصحابه أن واقعوا شمس الدين وأصحابه فتواقعوا وذهب شمس الدين غلطاً، ولما عاد طاش تكين إلى بغداد غضب الامام الناصر عليه بسبب ذلك، وعزله عن إمارة الحاج، ثم اعتقله بعد مدة.

ودخلت سنة أربع وثمانين

والملك الناصر مقيم بعكا، فسار إلى كوكب رأى حصانتها، ووكل بها قايماز النجمي، وجهز إلى صفد طغريل الجاندار، وكان سعد الدين الأسدي موكلاً بقلعة الكرك، وقد ذكرنا أن الملك الناصر ضرب عنق صاحب الكرك بيده، وكانت زوجته ابنة فليب مقيمة بالقدس، وحصل ولدها هنفري في الأسر، فلما فتح الله سبحانه القدس، خرجت صاحبة الكرك ابنة فليب طالبة الملك الناصر باكية على ولدها، حاسرة والهة راغبة في فك ولدها، وخرجت معها زوجة ابنها باكية نادبة زوجها هنفري، فأكرمها السلطان، وتقرر مع صاحبة الكرك اطلاق ابنها على تسليم قلعتي الكرك والشوبك إلى المسلمين، واستحضر السلطان ابنها هنفري من دمشق، وسار معهم جماعة من الأمراء لتسليم المعاقل، ومضت الملكة مع ولدها حسنة الظن بمن بالمعاقل، من أهل دينها، فلما وصلت إليهم منعوها وقاطعوها وشتموها، فذكرتهم وخوفتهم، فلم يصغوا إلى مقالتها، فعادت إلى السلطان خائبة ، فقبل عذرها، وأعلمها

أن ولـدها محفـوظ ملحوظ إلى أن يتسلـم منها الحصـون، ويسلمه إليهـا، فمضت إلى صور وسكنت بها.

ثم أخذ السلطان يستشير في أمـر عكا وتهديمها أو عمارتها، واختلفت الآراء فترجح عنـده عمارتها ، فقال: مـا أرى لها إلا بهاء الديـن قراقـوش، فبعـث كتابـاً أحضره، وسلمها إليـه لعمارتها، وعـاد السلطان إلى دمشـق، ودخلهـا في سادس ربيـع الأول، وكان الصفـي بـن القابـض، قد ابتنـى للسلطـان داراً على بعـض أبـراج قلعـة دمشـق، وأذهـب في نضـارتها وزخـرفتهـا مـالاً عظيماً، ظنـا منه أن هـذا يعجـب السلطـان، فلما دخـل السلطـان إلى دمشق اجتهـد الصفي في دخـول السلطان إليهـا، وتوسـل وتـوصـل، فما التفت السلطـان ولا دخلهـا وقـال: السعيد مـن يبنـي دار الآخرة، ثم عزل الصفي عن ديوانه بسببها، وأبقاه على الخزانة.

قال العماد الكاتب: سمعت السلطـان يقول: كان خير ذنوب الصفي عندي بناؤه تلك الـدار، وما يعمل بالدار من يتوقـع المنية، وما خلقنا إلاّ للعبـادة، والسعي في السعـادة، ومـا يخطر لنـا خلـود في هـذه الدار، ثـم وردت الأخبـار بوصـول عسكـر الشرق إلى حلـب، فتوجـه السلطـان إلى بعلبك، ووصل عماد الـدين زنكي بن مودود بـن زنكي إلى بحيرة قدس، وخيم عليهـا، فخرج السلطـان إلى قدس، وتلقاه عماد الـدين، ثـم دخلا إلى الساحـل، ونهب المسلمون من الأغنـام شيئاً كثيراً، وقطعوا أشجـارهم وخربـوا ديارهم، وفتحوا حصـن يحمور، وساروا إلى أنطرطـوس في سادس جمادى الأولى، وزحفـوا إليهـا وهـدمـوهـا ونهبـوا مـا فيهـا مـن الأنفـس والأموال، وامتنـع منها برجـان في أحدهما الـداوية ، وفي الآخر جملـة من المنهزمين، فسلم مظفـر الدين برج المنهـزمين وتسلمه منهم وهدمـه ورمى بحجارته إلى البحـر، وامتنع برج الداويـة فتركه خوفاً مـن فوات غيره، ثم سار نحـو جبلة وتسلموها بـأمان في ثامن عشر جمادى الأولى، ثـم مضوا إلى صهيون، ونصب المجانيق عليها، واشتـد عليهم الحصار حتى صاحوا الأمـان، فأخـذهـا السلطـان منهم بما فيهـا مـن العـدد والأموال، وقطـع

عليهم مثل قطيعة القدس، ثم سلم السلطان صهيون بجميع ما فيها إلى الأمير ناصر الدين منكورس بن ناصح الدين خمارتكين، ثم تسلم السلطان قلعة العيد، ويوم السبت قلعة الجماهريين، ويوم الاثنين خامس جمادى الآخرة حصن بلا طنس، ثم مضى إلى الشغر بكاس فتسلمها بالأمان، وكان من نوادر ألطاف الله تعالى تيسر هذه الفتوحات الخمسة المتتالية في أيام الجمع الخمس المتتالية، ثم سار السلطان إلى برزية وفتحها بعد حروب كثيرة في جمادى الآخرة أيضاً،ثم توجه إلى الدربساك وتسلمها في ثاني عشر رجب، ثم تسلم من الداوية حصن بغراس وعجب من ذلك، وسلم الحصنين إلى سليمان بن جندر، وكان له حصن عزاز، ثم عزم على قصد أنطاكية، فوصله رسول صاحبها يسأله الهدنة على أنطاكية وما في يده ثمانية أشهر، فأجابه على ذلك، وتوجه السلطان إلى حلب فدخلها، ثم توجه إلى معرة النعمان قاصداً زيارة الشيخ أبي زكريا الزاهد رحمه الله، فزاره وتبرك به، ثم مضى إلى حماه، وتوجه إلى دمشق فدخلها في آخر شعبان من السنة، وظن الناس أنهم يقيمون بدمشق للصوم عند أهاليهم، فما لبث السلطان ولا مكث، وخرج في أوائل شهر رمضان، وقصد صفد وقاتلها مدة شهر إلى ثامن شوال فتسلمها بالأمان بعد قتال شديد، فلما كان منتصف ذي القعدة فتح السلطان كوكب بعد حروب عظيمة، وتوجه السلطان إلى القدس في مستهل ذي الحجة وعيد به عيد الأضحى، وودعه الملك العادل ومضى بعسكره إلى مصر، وخرج السلطان إلى عكا.

ودخلت سنة خمس وثمانين

والسلطان مقيم على عكا يرتب أمورها ويصلحها، فلما كان العشرون من شعبان زحف الفرنج عن يد واحدة، واقتتل المسلمون وهم قتالاً عظيما استشهد فيه الأمير مجلي بن مروان، وظهير الدين علي أخو الفقيه عيسى، وطلبوا مخيم السلطان فانهزم المسلمون، ووصل بعضهم إلى

طبرية، وبعضهم إلى عقبة فيق، ومنهم من وصل إلى دمشق، وخيف على السلطان ، واشتغل كل بنفسه، ثم ورد الخبر أن السلطان صادف جمعاً من الفرنج فقاتلهم وانتصر عليهم، فتراجع الناس إليه، ووقعوا على ميسرة العدو ووضعوا فيهم السيف، ولم ينفلت منهم إلاّ الآحاد

قال العماد الكاتب: حكي أن الفرنج اعرضوا في مائة ألف وعشره آلاف ،ومن العجب أن الذين ثبتوا من المسلمين لم يكونوا ألفا، فردوا مائة ألف، وحكى بعض المنهزمين قال: انهزمت من فارس كافر وفرسه يجري جري الريح، ولزني حتى آيست من البقاء، ثم أبطأ عليّ فعله بي فالتفت وإذا به وبحصانه ملقيان وليس هناك أحد، فعرفت أنه نصر إلهي. واستشهد في هذه الوقعة الفقيه جمال الدين أبو علي ابن رواحة، ثم وقع الاتفاق على تأخير القتال، وتأخر السلطان إلى اسروبة، وشرع العدو في حفر خندق على معسكرهم من البحر إلى البحر، فحفروه وعمقوه.

وفيها توفي الشيخ شرف الدين أبو سعد عبد الله بن محمد بن أبي عصرون، موته في يوم الثلاثاء حادي عشر شهر رمضان سنة خمس وثمانين وخمسمائة بدمشق، ومولده في أوائل سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، فكان عمره أربعاً وتسعين سنة، كان عالما بمذهب الشافعي، عظيما فيه، أخذ العلم عن القاضي أبي علي الفارقي وقرأ الفارقي على الشيخين أبي اسحق الشيرازي، وأبي نصر بن الصباغ، وقرأ أصول ابن برهان على ابن برهان، وقرأ تعليق أسعد على أسعد،وأنجب من أصحابه خلق عظيم، وهو كان السبب لعمارة المدارس واشتهار العلم بالشام.

وفيها وصل أمر أمير المؤمنين الامام الناصر إلى السلطان الملك الناصر بالخطبة لولده ولي العهد عدة الدين أبي نصر محمد، فخطب له بدمشق في يوم الجمعة ثالث عشر صفر، ونثرت الدنانير على الخطيب، وأمر بذكر اسمه في السكة والخطبة ففعل.

وفيها في تاسع ذي القعـدة توفي الفقيه ضياء الدين عيسـى بن محمد ، وحمل من يومـه إلى القدس فدفن به، وفيهـا توفي عز الدين بن الم[illegible] في بكرة الجمعة منتصف شعبان.

ودخلت سنة ست وثمانين

والسلطان مقيـم على الخروبة، والملك العـادل والأفضل معه، والفـرنج محاصرون عكا،ودام الحصار جميع السنة.

وفيها كـانت وقعة الرمـل: كان السلطان يركـب أحيانا للصيد فـركب يومـا لذلك، فطـاب له وأبعد، فخرج الفـرنج طالبين بعـد العصر، وحملوا حملة واحدة على المسلمين، وفني نشاب المسلمين، واستشهد منهم جماعة.

وفيها في نصف ربيـع الأول تسلم السلطان شقيف أرنـون، وفيها صح الخبر أن ملـك الألمان عبر مـن خليـج القسطنطينية ، وكـان معـه خلـق لايحصون ، فقيـل إنهم أقاموا في مـوضع شهراً عـدموا فيه الطعـام فهلك منهـم خلق، وتـوصل الباقون إلى بـلاد قليج أرسلان بن مسعـود، فقاتلهم فهزمـوه ودخلوا قونيـة ثم راسلهم وصـالحهم على العبور إلى بـلاد الشام، فاصطلحـا على ذلك، وبعث مليح بـن لاون معه عشرين أميراً ليـوصلوه إلى مأمن، فلما وصل ملك الألمان إلى المأمن، غـدر بالأمراء، وساقهـم معه مقيديـن إلى طرسوس، فمكث بها مـدة، ثم قيل إنه عـنّ لملك الألمان أن يسبـح، وكان شيخـاً مسنـاً، فسبح في الماء البـارد، فخـرج منـه مريضـاً، ومـات إلى لعنة اللـه تعـالى، وقيـل إنه غـرق ، وقيـل إنـه لما مات سلقـه أصحـابه في قـدر حتـى تخلصت عظـامـه، ثم جمعـوهـا في كيس ورامـوا انفاذها إلى القـدس ليدفنوها في قمامة اكـراما له على ما وصاهـم به، وقام ولده مقـامه، ووصل إلى السلطـان كتاب اللكوتـاغيكوس صاحـب قلعة الروم يبدي نصيحـة، وأرعد فيه وأبرق بقضية ملك الألمان، وحكـى له ما

جرى له معه، فذكر أنه بذل لملك الألمان مائة قنطار ذهب وفضة نضفين،ومن الثياب الطلس المعدنية ما يبلغ آلافا، وكثر في ذلك وشدد وأنه توفي بعد استحمامه بماء بارد، وقد خلف ولده، وقد عرض في اثنين وأربعين ألف فارس، وأما الرجالة فلكثر تهم تعذر العرض.

فلما بلغت هذه الأخبار اضطربت الديار، ثم قدر الله سبحانه مرض ولد ملك الألمان ، ومات أصحابه جوعاً، وتواصل من سلم منهم إلى أنطاكية ، وتفرقت بقية منهم التقطهم المسلمون والتركمان، وباعوهم بحلب في الأسواق، حتى أن فلاحي القرى طمعوا بهم واستأسروهم، فتوجه ملك الألمان بنفر يسير إلى عكا، فاختلط مع الفرنج عليها.

وفيها ليلة الثلاثاء ثامن عشرين شهر رمضان توفي زين الدين يوسف ابن ايتكين صاحب إربل ، وسر أخوه مظفر الدين بوفاته. وقال العماد: قصدناه معزين وإذا به في رواقه واحتاط على جميع ما يحويه، وخدم بخمسين ألف دينار حتى أخذ إربل وبلادها، ونزل عن حران والرها وسميساط، وزاده السلطان شهر زور.

وفيها وقعة رأس الماء، في رابع عشر شوال، وسببها أن الأسعار غلت عند الفرنج حتى هلكوا جوعاً، وبلغت الغرارة مائة دينار، فخرجوا بحدهم وحديدهم وعدّهم وعديدهم، وعبأ السلطان عسكره، والتقى الجمعان، وقام اياس الطويل في هذا اليوم مقاماً عظيما، ووقف بين الصفين يدعو إلى المبارزة، فما برز إليه أحد إلاّ صرعه.

ثم هجم الشتاء وأذن السلطان للأجناد الغرباء والملوك بالإنصراف، فعادوا إلى منازلهم، وأقام بخاصته على قدم الغزاة.

وفيها في ثاني عشر ذي الحجة هلك ولد ملك الألمان، ولحق بأبيه لعنهما الله تعالى.

ودخلت سنة سبع وثمانين

فيها وقعت وقائع على عكا آخرها يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة، فهجم الفرنج عكا واستولوا عليها، وخرج سيف الدين المشطوب وحسام الدين سر باريك وأخذا أمانا من الفرنج على أن يخرجا بأنفسهما وأموالهما على تسليم البلد ومائتي ألف دينار، وألف وخمسمائة أسير من المجهولين، ومائة أسير من المعروفين، وصليب الصلبوت، وعشرة آلاف دينار للمركيس، وأربعة آلاف لحجابة، ونسب السلطان ذلك بعد قضاء الله سبحانه وتعالى وقدره إلى الملك المظفر تقي الدين، حيث سافر على أن يعود بأضعاف عسكره، فاشتغل بقصد أخلاط وغيرها.

وغدر الفرنج بالمسلمين بعد الأمان، وأسروا بهاء الدين قراقوش، وسيف الدين المشطوب، ثم لما استقروا بعكا خرجوا إلى قيسارية، ووقعت وقعتها في تاسع شعبان، واستشهد اياس الطويل. ثم في رابع شعبان كانت وقعة أرسوف ،وثبت على صدمة القوم الملك العادل سيف الدين، ونزل الفرنج على يافا، وتوجه السلطان إلى عسقلان فهدمها في تاسع عشر شعبان، ثم توجه إلى الرملة فنزلها بعد هدم عسقلان.

وفيها توفي الملك المظفر تقي الدين أبو الفتح عمر بن شاهان شاه بن أيوب في يوم الجمعة تاسع عشر شهر رمضان، وهو محاصر ملازكرد، وقد ذكرنا أن مولده في سنة أربع وثلاثين وخمسمائة، وكان عمره اثنتين وخمسين سنة وشهوراً.

وفيها توفي حسام الدين محمود بن عمر بن لاجين ـ ـ وهو ابن أخت السلطان الملك الناصر ـ بدمشق، في يوم الجمعة تاسع عشر رمضان في يوم وفاة الملك المظفر. وفيها توفي علم الدين سليمان بن جندر. وفيها

توفي الصفي بن القابض في ثالث عشرين رجب. وفيها توفي نجم الدين الخبوشاني، وهو الذي بنى المدرسة عند ضريح الشافعي رحمه الله، ووقف السلطان عليها رباعاً، فلما توفي الخبوشاني طلب المدرسة جماعة، وشفع الملك العادل في صدر الدين شيخ الشيوخ ابن حموية، فسلمها إليه، ثم عزل بعد ذلك بمدة قليلة.

وفيها مات قزل صاحب خراسان، وملك ابن أخيه أبو بكر.

وفيها تسلم الملك الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين صاحب حلب بهسنا، وكيسون ورعبان والمرزبان. وفيها قتل الملك الظاهر شهاب الدين السهروردي وتلميذه لفساد دينه واعتقاده.

وفيها توفي القاضي محيي الدين بن كمال الدين بن الشهرزوري بالموصل، وفيها توفي الفقيه علاء الدين الكاشاني بحلب، مدرس مدرسة الحلاويين، وكان رئيس أصحاب أبي حنيفة بها.

ودخلت سنة ثمان وثمانين

وصل السلطان إلى القدس، وشرع في تحصينه وعمارته، ثم وصله الأمير سيف الدين المشطوب من الأسر، وكان لما أسر قرر على نفسه قطيعة خمسين ألف دينار، أدى منها ثلاثين ألفا، ودفع رهائن بعشرين ألفاً، فأقطعه السلطان نابلس وأعمالها لمصالح القدس، وترك عماد الدين أحمد بن المشطوب بنابلس، وأبقي عليه فيها.

وفيها: هلك المركيس لعنه الله بصور، قتله كافران بالسكاكين في ثالث عشر ربيع الآخر. وفيها في ربيع الآخر توفي القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى، المعروف بابن الفراش ، قاضي العساكر.

وفيها أخذ الفرنج الداروم عنوة، وقتلوا كل من به من المسلمين، قيل كانوا خمسمائة نفس وفيها مضى السلطان إلى يافا ونقبوها وهجموها، وذلك في شهر رجب، وفيها قريب من ألف نفس من الفرنج، وطلبوا الأمان فبطل السلطان عنهم القتال طمعا في أخذهم، فجاءهم صبيحة يوم السبت نجدة من عكا، ستون مركبا موسقة بالرجال، وقاتلوا المسلمين، وقتلوا منهم جماعة، وعند ذلك ظفر السلطان بهم، فطلبوا الصلح، وطلب السلطان منهم عسقلان وغيرها فردوه فأجابوا فتسلم منهم مدينة عسقلان وهدمها، بعد أن غرم الفرنج على عمارتها مائة ألف دينار.

ودخلت سنة تسع وثمانين

كان السلطان دخل دمشق، فلما دخل صفر مرض ثم توفي في السابع والعشرين من صفر، رضي الله عنه، وقد ذكرنا أن مولده في سنة اثنتين وثلاثين، فكان عمره ستا وخمسين سنة وأشهرا، وخلف من الولد سبعة عشر ولدا ذكرا وابنة صغيرة، وكان الملك العادل يومئذ بالكرك فحضر بعد أيام إلى دمشق، ثم توجه إلى بلاد الجزيرة، فإن السلطان كان قد جعل له كل ماشرقي الفرات من البلاد، ولم يخلف السلطان في خزانته سوى دينار واحد وستة وثلاثين درهما، هكذا ذكره العماد الكاتب.

قال العماد الكاتب: حسب ماوهبه السلطان من الخيل لمن حضر معه في الجهاد في مدة ثلاث سنين اثني عشر ألف رأس من الخيل، من حصان واكديش وحجرة، غير ما أطلقه من المال لشراء الخيل، ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب او موعود بهبته، وماحضر اللقاء إلا استعار فرسا جاهد عليه، فإذا نزل أعاده إلى صاحبه، وكان لايلبس إلا مايحل لبسه من قطن وكتان وصوف، وكانت محاضره مصونة، وخلواته

مقدسة، عالما بعلوم الشرائع، وكان المجالس له لايعلم أنه جليس السلطان بل جليس لأخ من الأخوان.

قال العماد: ومما أذكر له أنه توجه إلى مصر سنة اثنتين وسبعين فحوسب صاحب ديوانه، فكانت سياقة الحساب سبعين ألف دينار باقية عليه، فما طلبها ولا ذكرها مع أن صاحب الديوان معترف بها، ووصله كتاب سيف الدولة ابن منقذ من مصر يخبره أن شخصا ضمن معاملة بمبلغ فاستقص منها ألفي دينار وهرب، وربما وصل إلى الباب الشريف وتمحل وتحيل وكذب، فأخبر السلطان أنه بالباب، فقال السلطان: قولوا له: ان ابن منقذ يطلبك فاجتهد ان لاتقع في عينه، فتعجب الحاضرون من كرمه وحلمه.

قال العماد: وقال لي بحرّان في سنة إحدى وثمانين: اكتب إلى الصفي ابن القابض يتصدق بدمشق بخمسة آلاف دينار صورية، فقلت الذهب الذي عنده مصري، فقال: يتصدق بخمسة آلاف دينار مصرية، قال العماد: وأشفق من صرف المصري بالصوري لما فيه من الربا، قال العماد: فسمعت بعد ذلك من الصفي يقول: أحصيت فقهاء المدارس بدمشق، فكانوا ستمائة فقيه، فأطلقت لكل فقيه شيئا من ذلك، قال العماد: وقال لي يوم الرحيل من حران: انظر كم بقي من الوافدين بالباب من أبناء السبيل، وهذه ثلاثمائة دينار فرقها عليهم، وفضل من شئت على أقدارهم، فعينت لكل واحد منهم قسما، فبلغت القسمة أربعمائة دينار، فجعلت أفكر وأطيل النظر إليه، فقال: مالك؟ قلت: قد جرى القلم بقسمة أربعمائة دينار فهل أنقص من كل قسم ربعا؟ فقال: لا، أجري ماجرى به القلم، وأحسن صنعا، وكانت مماليكه وخواصه وأجناده أعف من الزهاد.

قال العماد: ورأى يوما دواتي محلاة بالفضة، فأنكرها، فقلت: أوليس

تحل حلية السلاح، فدواتي أنفع، ويراعي أطول، وسلاح قلمي أجد وأجد، وما اجتمعت هذه العساكر الاسلامية إلا بقلمي، فقال: ماهذا دليل، فقلت: إن الشيخ أبا محمد الجويني والد إمام الحرمين أبي المعالي قد ذكر وجها في جواز تحلية الدواة، وأنا أتبعه، ثم بعد ذلك ماعدت كتبت منها، إلا من دواة شبه خوفا منه.

وكان محافظا على الصلوات الخمس في أوقاتها، وعلى أداء سننها، ولايصغي إلى قول منجم ولامنطقي، ولايفضل يوما على يوم ولازمانا على زمان، هذا خلاصة ماذكره العماد الكاتب، وبالجملة كان السلطان رحمه الله أعظم من أن يوصف بالصفات الجميلة والآراء الحميدة، وكل ماذكره العماد الكاتب عنه مقبولا ولايمكن دفعه ،وأول من جمعه.

ولما مات السلطان قدس الله روحه قام بالملك بعده ولده الملك الأفضل نور الدين علي، واستقل بدمشق، وكان السلطان عهد إليه في حياته واستحلف الجنود له.

وفيها توفي عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود، وقام بالأمر بعده ولده نور الدين، وفيها تسلم الملك العادل قلعة جعبر وسروج والرقة، وصالح صاحب الموصل، وصاحب سنجار، وأخذ العساكر، ودخل إلى بلاد أخلاط فكسره صاحبها وقتل من أصحاب الملك العادل جماعة وأسر جماعة، وهجم الثلج، فعاد الملك العادل إلى حران.

وفيها فارقت الياروقية الملك الظاهر من حلب، وانتقلت إلى خدمة الملك العادل.

وفيها قتل سلطان همذان طغرل-شاه بن أرسلان شاه، وحمل رأسه إلى بغداد على قناة، وعلق على الباب النوبي، وفيها أخذ الإمام الناصر

البوازيج من صاحب إربل وسلمها إلى صاحب الموصل، وفيها ذكر أن خليجا من نيل مصر أصبح دما عبيطا وفيها ورد الخبر بأن ذئبا كلبا هجم دنيسر، وعض اثنين وتسعين نفرا فماتوا جميعا، وفيها وقع بأرض بالس برد كبار، وزن البردة على ماقيل مائة وعشرون درهما، هلك به الوحش والطير والنعم والماشية والخلق والضياع والأشجار، وأخرج من الماء برد بعد خمسة عشر يوما من وقوعه في الماء مثل بيضة الحمام، وجاء عقيب ذلك رعود طارت العقول منها، وفقعت فقعة كان منها صاعقة نزلت في اصطبل باليارقية أحرقت سبعة أنفس كانوا منتبهين، وإلى جانبهم ثلاثة انفس نيام لم تصبهم وسلموا.

ودخلت سنة تسعين

فيها نزل الملك العزيز عثمان صاحب مصر إلى دمشق يحاصرها، وأقام عشرة أشهر وقطع الماء عنها، فبعث الملك الأفضل إلى عمه الملك العادل وأخيه الملك الظاهر يستنجدهما فوصلا إليه ورحلا العزيز عنها، واصطلحوا جميعا، وعاد العزيز إلى مصر، وأخذ الملك الأفضل من الفرنج جبلة واللاذقية.

ودخلت سنة احدى وتسعين

ففيها توفي القاضي مجد الدين أبو القاسم هندي بن يوسف بن هندي، الحاكم بمدينة حمص، وصلى عليه الخطيب ضياء الدين الدولعي بجامع دمشق، ثم صلى عليه القاضي ضياء الدين بن الشهرزوري خارج باب الصغير، ثم صلى عليه الحافظ ضياء الدين ابن عساكر بالمصلى، ثم صلى عليه القاضي محيي الدين قاضي دمشق، ابن القاضي زكي الدين بمسجد النارنج ودفن به، وكانت الجنازة عظيمة وافرة جدا، وكان رحمه الله عالما فاضلا عظيما مهيبا، وقام بالقضاء بعده القاضي زين الدين أبو

الفضل محمد، وكان في زمن والـده ينوب عنه في القضاء بحمص وأعمالها في غيبته وحضوره، ثم استقل بالقضاء بحمص وأعمالها بعد وفاة والده.

ودخلت سنة اثنتين وتسعين

فيها نـزل الملك العـادل أبو بكر بـن أيوب على مـاردين، وحـاصرها، وأخذ الربض في ذي الحجة من السنة.

ودخلت سنة خمس وتسعين

فيها تـوفي الملك العـزيز عثمان صـاحب مصر وقـص به فـرسه فمات، واتفقت الصـلاحية على توليـة الملك العادل بمصر، فحضر إليهـم سيف الـدين يـازكش، وأشـار بإحضـار الملك الأفضـل وتوليتـه، وكان يـومئذ بصلخد، واتفقوا على ذلك وأحضروه وولوه السلطنـة بمصر، واستقر حاله بها، ثم بعد ذلـك خرج فخر الديـن جهاركس والصلاحيـة مغاضبين إلى القدس، وأخذوه، وبعث الملـك الظاهر صاحب حلب، والملـك المجاهد اسـد الديـن شيركوه صـاحـب حمص إلى الملك الأفضـل، وأشاروا عليـه بقصد دمشق وأخذها وأنهما ينجدانـه، فخرج الأفضل قاصدا دمشق، ولما بلغ الخبر الملـك العادل سيف الـدين أبا بكر، وهـو يومئذ بماردين ساق مستحثا طالبا دمشـق، فدخلها في أيام قلائل قبل وصـول الملك الأفضل إلى دمشـق، وسببه أن الأفضـل اعتـاق في الطـريق لالضرورة، ولـو كـان استحـث نفسـه سبـق إلى دمشق، ولما وصـل الأفضـل إلى دمشـق جـاءه الملك الظاهر وصاحب حمص، وأناخا على دمشق محاصرين عمهما الملك العـادل، فحاصراه والملـك الأفضـل مدة، ثـم هجم الشتـاء فـرحلا عـن دمشـق، وكان الملـك العـادل في خلال الحصـار استـدعـى ولده الملـك الكامـل، وهو على ماردين بالعساكر، فجـاء العادل بعساكـره إلى دمشق ودخلهـا، ولما رحل الملـك الظـاهـر والملك الأفضـل عـن دمشـق توجـه

الظاهر إلى حلب، والأفضل إلى مصر، وعاد الملك الكامل إلى جهة الشرق، ثم توجه الملك العادل إلى مصر تابعا للأفضل فوصلها، وكانت عساكر مصر قد باطنت وخامرت ونكثت أيمانها، فملك العادل مصر، وخرج الملك الأفضل إلى صلخد.

وفيها توفي القاضي الفاضل عبد الرحيم بن البيساني في الليلة التي دخل الملك العادل فيها إلى مصر بعلة السكتة.

ودخلت سنة ست وتسعين

لم يزد فيها نيل مصر، واشتد عليهم الغلاء والوباء حتى مات أكثر الناس بها جوعا وأكل بعضهم بعضا.

وفيها ولي القاضي ضياء الدين بن الشهرزوري قضاء القضاء ببغداد، وفيها ورد القاضي زين الدين أبو الفضل محمد بن القاضي مجد الدين بن هندي الحاكم بمدينة حمص إلى مدينة حماة مفارقا حمص وقضائها، فتلقاه الملك المنصور صاحب حماة بالإكرام والإعظام واستقضاه وبعثه رسولا في سنته إلى الديار المصرية إلى الملك العادل سيف الدين.

ودخلت سنة سبع وتسعين

كان الملك العادل أقطع ابن أخيه الملك الظافر خضر السواد من الشام، فبلغ الملك العادل أنه يكاتب أخوته باطنا، فأقطع الصلاحية السواد وأمر عليهم عز الدين سامة، وأمرهم بقصد صلخد ومحاصرة الأفضل ففعلوا، ثم أقطع الملك العادل سيف الدين أبو بكر ابن أخيه الملك الأفضل ميافارقين وجبل جور، ونفذ في الباطن إلى ولده الملك

الأوحد المقيم يومئذ بميافارقين يأمره أن لايسلمها إليه، فخرج الملك الأفضل في جمادى الآخرة من السنة، ومضى إلى حلب واستنجد بأخيه الملك الظاهر، فأكرمه، وجند الملك الظاهر الجنود وخرج بنفسه وعساكره وأخرج معه خزانة السلاح محمولة على مائتي جمل، وقصد منبج، فأخذها، وصاحبها يومئذ شمس الدين عبد الملك بن المقدم، وقبض عليه وبعثه إلى حلب، فاعتقله بها، ثم توجه إلى قلعة نجم فأخذها وسلمها إلى نواب أخيه الأفضل، وعاد إلى جهة حماة ومعه من العرب أمم عظيمة، فنهبوا القرى وأجلوا أهلها وسفكوا دمائهم، وأكثروا الفساد في الأرض، وأخافوا السبيل، ثم مضوا إلى حماة فحاصروها في شعبان وشهر رمضان من سنة سبع وتسعين، ثم اصطلح الملك الظاهر والملك المنصور، وتوجه الملك الظاهر والملك الأفضل إلى حمص وصاحبها يومئذ(اسد الدين شيركوه) ابن اخى الملك الأفضل، والكل متفقون باطنا، ثم مضيا إلى بعلبك، فأعطاهما صاحبها مالا، ثم توجها إلى دمشق في ذي القعدة من سنة سبع وتسعين، فنزلا في ميدان الحصا والمقابر، وزحفا مرة، ثم زحفا مرة ثانية فملكا العقيبة وهدماها، وملكا خان الملك المظفر تقي الدين، وخرج إلى الملك الظاهر الخطيب الدولعي والأمير عز الدين سامة ولطفا به ووعداه أنه اذا توجه إلى عمه الملك العادل وبلغ مقصوده منه وعاد سلموا إليه دمشق صلحا.

وفي أثناء ذلك وقع فيما بين الملك الظاهر والملك الأفضل، وفسد الحال ورحلا عن دمشق في أول صفر سنة ثمان وتسعين، ولما عاد الملك الظاهر إلى حلب صالح الملك الأفضل عمه الملك العادل على سروج وسميساط والموزر، فدفعها الملك العادل إليه، وخاف الملك(المنصور) صاحب حماة من الملك الظاهر على المعرة، فراسل الملك العادل في استدعائه للمقام بظاهر حماة، ونزل ظاهرها، ثم اتفق الصلح بين الملك العادل وبين الملك الظاهر.

وفيها توفي حسام الدين صاحب ماردين، قيل إن غلامه قد سقاه سما، فمات منه، وفيها عزل القاضي ضياء الدين بن الشهرزوري عن قضاء بغداد، وفسح له في العودة إلى وطنه.

وفيها توفي جمال الدين ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي إمام وقته في علم الوعظ والحديث والجرح والتعديل والتفسير والتاريخ والسير، والفقه على مذهب أحمد بن حنبل، صنف في كل علم وطبق الأرض ذكره، واشتهرت تصانيفه وكان من العلم والفضل بمحل عال وأما الوعظ ومواده فهو مسلم إليه.

وفيها زلزلت الدنيا زلزلة عظيمة بالشام والسواحل هدمت صور وعرقة وأبراجا من عكا وهلك فيها خلق عظيم ووقع رأس منارة دمشق والكلاسة وأبراج من قلعة حماة وبارين وشعثت شيزر وبعلبك.

وفيها تزوج السلطان الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالي محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة الست وحشية خاتون ابنة السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب ووصلت إلى حماة وكان يوما مشهوداً ،وتوفيت السنجارية زوجة الملك المنصور قبل ذلك بثلاثة أيام فكان موتها راحة لها.

دخلت سنة تسع وتسعين

فيها في يوم الثلاثاء منتصف شهر رمضان ولد الملك المظفر تقي الدين أبو الفتح محمود بن الملك منصور والدته وحشية خاتون بنت الملك العادل سيف الدين.

وفيها ولي القاضي ضياء الدين بن الشهرزوري قضاء حماة في صفر وتوفي في العشر الاوسط من رجب من السنة فكانت مدة ولايته خمسة

أشهر فيها شهر واحد صحيح الجسم ، والباقي مريض، وفيها توفي القاضي محيي الدين أبو المعالي بن القاضي زكي الدين قاضي دمشق المحروسة.

ودخلت سنة ستمائة

فيها توفي الحافظ بهاء الدين بن عساكر بدمشق.

ودخلت سنة خمس وستمائة

فيها جاءت زلزلة عظيمة هائلة في الثلث الأخير من الليل هدمت شراريف من برج القلعة بحماة المحروسة وهدمت أبراجا بقلعة بارين وهدمت غالب قلاع الساحل وحكي ان البحر غار قطر منه وعمت معظم البلاد في الأقطار.

ودخلت سنة ست وستماية

فيها توجه الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب الى سنجار فنزل عليها وصحبته الملك المنصور صاحب حماة وغيرها وذلك مدة أشهر.

وفيها توفي الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي المعروف بابن خطيب الري صاحب الكتب المصنفة في الحكمة والمنطق والأصولين وغيرَ ذلك، طبق ذكره الأرض واشتهر فضله وسارت مصنفاته وعلت منزلته عند خوارزم شاه حتى كان يقرأ عليه ويقعد بين يديه، وتوجه الى عند شهاب الدين الغوري وحظي عنده بالحظوة العليا وله أخبار منقولة وسير مشهورة ومولده في حدود سنة خمسين وخمس مائة،

وأخذ العلم عن والده الخطيب بالري وعن مجد الدين الجيلي وأخذ الحكمة وعلم الكلام عن الحمّصي — بميم مشددة.

ودخلت سنة سبع

فيها وردت رسل الباطنية الى بغداد من ألموت وبقية بلادهم، وخبروا عنهم أنهم اسلموا وأظهروا شعائر الإسلام وبعثوا بمفاتيح بلادهم وقلاعهم الى دار الخلافة وبعثوا ذهبا مضروبا عليه اسم الإمام الناصر لدين الله تعالى وزَفّت في جوانب بغداد.

وفيها توفي نور الدين زنكي صاحب الموصل وتقلد السلطنة بالموصل بعده الملك القاهر.

ودخلت سنة ثمان وستمائة

فيها توفي شيخنا الإمام عماد الدين أبو حامد محمد بن يونس إمام أصحاب الشافعي في وقته، مولده في حدود سنة اثنتين وخمس مائة وكان رحمه الله جامعا بين العلم والعمل انتهت اليه رئاسة الدين والدنيا وصنف في أصول الفقه وفروعه، وكان إذا مرض يعوده نور الدين أتابك صاحب الموصل في منزله، وكان نور الدين حنفي المذهب، فعاد الشيخ عماد الدين مرة في مرضه وسأله حاجة فقال: ارى أن تعود الى مذهب الشافعي فعاد من وقته وبنى لأصحاب الشافعي مدرسة لم ير الراؤون أحسن منها، ودفعها للشيخ عماد الدين رحمه الله، وكان الشيخ هو المعتمد للترسل الى دار الخلافة، ولما توفي نور الدين انحدر الشيخ الى بغداد رسولا وأخذ التقليد الشريف بالسلطنة بتملك القاهر بن نور الدين أتابك، وبعد هذه السنة خال الى:

سنة اثنتي عشرة

فيها حـج الملك المعظـم عيسى صـاحب دمشـق ومهد طـريق تبـوك وفتحها فانقطع الحاج عن طريق تيماء وسلكوا طريق تبوك.

ودخلت سنة ثلاث عشرة

فيها مات الملك الظـاهر غياث الدين غازي بـن الملك الناصر صلاح الديـن يوسف بـن أيوب صاحـب حلب في العشرين مـن جمادى الآخر وكان رزئا عظيما في الإسلام.

ودخلت سنة اربع عشرة

فيها خرج التتر الكافر الى بلاد خـراسان وماوراء النهر، وأسروا خوارزم شاه، واستولـوا على بلاد المسلمين،وتسلموا خوارزم وهدموهـا، وقتلوا كل مـن بها، وفعلوا ذلـك ببخـارى، وتلك الأقـاليـم حتـى روى جماعة مـن التجار والفقهـاء الواردين من تلـك الجهات أنهم هـدموا مـائتي مـدينة ونيف، وقتلـوا من الفقهاء آلافا كثيرة، فكيـف بالعوام، وانقطعـت السبل في تلك النواحي سنين عديدة.

ودخلت سنة خمس عشرة

فيها توفي الملك العادل سيف الديـن أبو بكر بن أيوب في يوم الجمعة سابع جمادى الأولى بعـالقين على فراسخ من دمشـق وقد ذكرنا ان مـولده في سنة سبع وثلاثين، فكان عمره سبعا وسبعين سنة وشهورا.

ودخلت سنة ست عشرة

في يوم الثلاثاء خامس وعشرين شعبان تسلم الفرنج دمياط بعد محاصرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة وعشرين يوما، فإنهم نزلوا عليها في ثالث ربيع الأول سنة خمس عشرة، وأقام السلطان الملك الكامل في مقابلتهم بمن معه من الملوك والعساكر الاسلامية مدة طويلة بالمنزلة المشهورة بالمنصورة وجرى بين الفريقين من القتال برا وبحرا مالايمكن وصفه واشتد الغلاء بدمياط في حالة حصار الفرنج لها حتى لم يبق يوجد شيء وإن وجد كان أضعاف أضعاف ثمنه ونفدت نفقاتهم ووقع فيهم الفناء فماتوا، ولما تسلم الفرنج دمياط في التاريخ المذكور مازالت بأيديهم والمسلمون يحاصروهم ،ويوم الأربعاء سابع عشر شعبان سنة ثماني عشرة وستمائة فتحها المسلمون وتسلموها من الفرنج كل ذلك بحول الله وقوته وبعزم السلطان الملك الكامل وحسن نيته وجميل طويته، وكان ذلك يوما مشهودا عظيم البركة على المسلمين، وكانت مدة مقام دمياط في يد الفرنج سنة كاملة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوما.

ودخلت سنة سبع عشرة

فيها في يوم الاثنين سابع وعشرين ذي القعدة توفي الملك المنصور صاحب حماة رحمه الله تعالى، ومولده كما ذكرناه في سنة سبع وستين، وابتدأ ملكه حماه في أوائل سنة ثمان وثمانين فكان عمره خمسين سنة وشهوراومدة ملكه تسعا وعشرين سنة تقريبا ولما نزل به المرض أمر خاصته بتحليف الجند والخاصة والعامة لولده الاكبر الملك المظفر تقي الدين أبو الفتح محمود ففعلوا ذلك، وحلف الناس له اولا ثم من بعده لأخيه الملك الناصر قليج أرسلان،وكان الملك المظفر تقي الدين يومئذ بالديار المصرية بالغزاة في خدمة خاله السلطان الملك الكامل، والملك الناصر قليج أرسلان بدمشق تخلف بها، فلما اشتد المرض بالملك المنصور

تعصب بعض الخاص للملك الناصر قليج أرسلان لقربه من حماة وأحضروه وجرت أمور لم تخف عن أهل الأمر خلاصتها أنهم صعدوا به الى القلعة في يوم الإثنين وأحضروا الذي كان حلف من الخاصة للملك المظفر أولا والأمراء والخواص وطلبوا منهم ان يحلفوا للملك الناصر قليج أرسلان ، فامتنعوا وقالوا للمستحلف إنك حلفتنا بالأمس للملك المظفر بالعهود وبالنذور وبالأيمان المغلظة بالطلاق والعتاق فبأي فتوى ننكث أيماننا ويقع علينا الطلاق والعتاق فأجابهم بما اشتهر، وجرت أمور عجيبة حتى حلفوا ونقضوا الأيمان بعد توكيدها وكان من لطف الله سبحانه أنني كنت مريضا في تلك المدة لم أحضر شيئا من ذلك، ودفن الملك المنصور في يوم الإثنين المذكور، وأظهروا موته في بكرة الثلاثاء، وعملوا عزاء عاما في الجامع الأعلى، واستقل بتدبير الملك من غلب على الملك الناصر ممن هو معروف لم يخف على الناس أمره وحاله.

ودخلت سنة ثماني عشرة

فيها فتح المسلمون دمياط وملكهم يومئذ الفاتح لذلك المولى السلطان الملك الكامل، وكان فتحا مشهودا لم يكن في الإسلام أعظم منه، وبعد هذه السنة خال من الحوادث الى :

سنة اثنتين وعشرين

فيها توفي الامام الناصر لدين الله تعالى ابو العباس أحمد في ليلة السبت سابع شهر رمضان، ومولده كما ذكرناه في سنة اثنتين وخمسين وولي الخلافة في ثاني ذي القعدة سنة خمس وسبعين، فكان عمره سبعين سنة وشهورا، وكانت مدة خلافته ستا وأربعين سنة وأحد عشر شهرا تنقص يومين، ولم يخلف ولدا ذكرا سوى ولده الإمام الظاهر أبي نصر محمد، وسنذكر ولايته، وكان الإمام الناصر عظيما مهيبا عالما، سياسيا

حازما وقد سقنا من أخباره جملا في التاريخ الكبير، وهذا المختصر لايليق به التطويل، وقد حكي أنه لما عزل وزيره نصير الدين العجمي القمي وقبض عليه اسكنه في دار منعه من الخروج منها وأجرى عليه مايقوم به وبأولاده فكتب الوزير اليه:

ألقني في لظى فإن غيرتني
فتيقن أن لست بالياقوت
عرف النسج كل من حاك
لكن نسيج داود ليس بالعنكبوت

فكتب اليه الامام الناصر جوابا:

نسج داود لم يفد صاحب الغار
وكان الفخار للعنكبوت
وبقاء السمند في لهب النار
مزيل فضيلة الياقوت

وهذا جواب فائق وشعر مفلق، ومعنى بديع، وكان رضي الله عنه يحب علي بن أبي طالب رضي الله عنه ويحب اولاده ويميل اليه ويمتدحهم ويقدمهم ويفضلهم.....

خلافة الامام الظاهر بأمر الله

عدة الدين أبي نصر محمد بن الإمام الناصر لدين الله أبي العباس أحمد. بويع بالخلافة في يوم عيد الفطر من سنة اثنتين وعشرين، وكان والده قبض عليه مدة طويلة خوفا على نفسه، ولما ولي كان قد أناف على الخمسين سنة وظهر الشيب في لحيته، وحكي عنه انه قال،كم يقعد المعلم في المكتب إذا فتحه بعد العصر، فكان كما قال فلما دخلت:

سنة ثلاث وعشرين

توفي في ثالث عشر رجب فكانت مدة خلافته تسعة أشهر وثلاثة عشر يوما.

خلافة الامام المستنصر بالله أبو حسن المنصور بن الامام الظاهر بأمر الله .

بويع بالخلافة يوم موت أبيه، واستبشر الناس بخلافته وتيمنوا ولايته، ورد على الناس أموالا وأملاكا كانت قبضت عليهم. وتظاهرت الرعية بالأموال، وظهر من العدل مالا يمكن وصفه، واكثر من الصدقات بالأموال الجزيلة، ومنع أصحاب الأخبار والتخبر لما فيه من الفساد والضرر، وكان صاحب خبر كتب مطالعة اليه فكتب في جوابها: إن عاد كتب مطالعة أو خبّر خبرا ضربت عنقه، ومنع أهل الفساد من ذلك ووصل الحق الى مستحقه ومنع الظالم من تعديه وظلمه.

ودخلت سنة أربع وعشرين

في سلخ ذي القعدة منها توفي الملك المعظم شرف الدين عيسى بن السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب دمشق، وولي مكانه الملك الناصر صلاح الدين داود.

ودخلت سنة خمس وعشرين

فيها في شعبان تجهز السلطان الملك الكامل الى الشام والسواحل للقاء الفرنج خذلهم الله تعالى، حين علم تحشدهم وتجمعهم ولترتيب أمور المسلمين وبلادهم، فوافى تل العجول، وأناخ به، وتوجه الملك الأشرف الى خدمته،ومضى صاحب دمشق الملك الناصر صلاح الدين

داود معه لنجدته،واجتمعت عساكر المسلمين هناك،وكان الانبروز طاغية الفرنجة وعظيمهم خرج بجمع كثير الى الجزائر والسواحل، وخيف على بلاد الاسلام منهم فاجتهد السلطان الملك الكامل رأيه وصالحهم صلحا تاما رآه مصلحة للمسلمين وغنيمة لهم، فكان راعي هذه الأمة المحمدية، وسلطان الملة الاسلامية، ومن أعز الله تعالى به الدين وأهله، والمأمون عليهم، والناصح المشفق عليهم، ففعل مارآه مصلحة وغبطة ترجحت في نظره راعاها، وصالح الفرنج على ان يسلم اليهم البيت المقدس حرسه الله تعالى وحده،من غير تسليم شيء من أعماله ولا بلاده قليلا ولا كثيرا، وشرط عليهم ان لايجددوا فيه شيئا ولاسورا ولادورا ولايتجاوزوا خندقه، وأن تقام فيه الجمعة للمسلمين المقيمين به، ولايمنع مسلم من زيارته كيف أراد، ولايؤخذ من زائر مال أصلا، وكان ذلك إن شاء الله تعالى من أكبر مصالح المسلمين وأعظمها مما لايخفى عن ذي البصيرة، فإن البيت المقدس موضع عبادة لإقامة العبادة على حسب اعتقاد الناس، فسلم السلطان الملك الكامل ذلك إليهم مع تهدمه وعدم حصانته حفظا لبقية الثغور والبلاد، ونزله منزلة مسجد يتردد إليه المصلون، وعقد معهم عقد الهدنة الشرعية المدة المرعية في نظر سلطان المسلمين وملكهم ومتولي أمورهم، واندفع عن المسلمين بذلك شر عظيم، وخوف وحصل الأمن مدة الهدنة فلا مصلحة للمسلمين أعلى من هذه المصلحة، ولاغبطة لهم أعظم من هذه الغبطة، ودخل البيت المقدس أناس قليلون من الفرنج لاشوكة لهم ولاعدد ولاعدة، وكان ذلك في سنة ست وعشرون وستمائة، ومتى مهد السلطان الملك الكامل بلاد المشرق، واتفقت كلمة الملوك استعاد البيت المقدس من يد من هو فيه من الفرنج في يوم واحد، بل في ساعة واحدة حتى روي أنه وجد في المسلمين جماعة قتلوا ورموا في بئر هناك، فنسب المسلمون المقيمون بجبال القدس قتلهم إلى الفرنج، وهجموا عليهم البلد وقتلوا منهم مقتلة عظيمة يقارب خمس مائة نفس كما روي، وحجزوهم

وأرهبوهم واختلفوا فيهم، وصاروا في غاية مايكون من الذل، وعاد اللانبروز بعد الصلح التام إلى بلاده، ومازال السلطان الملك الكامل مقيما بتل العجول يمهد الأرض ويملأها عدلا.

وفيها عاد الملك الأشرف من تل العجول فأناخ على دمشق في أوائل ربيع الأول وحاصرها مدة ربيع وجمادين، وجاء السلطان الملك الكامل فخيم عليها، وجرت حروب كثيرة اشتهرت إلى أن ضاق الأمر بالبلد، فلم يكن للملك الناصر صلاح الدين داود إلا الترامي على السلطان الملك الكامل واستمطار مراحمه، فخرج إليه خفية وأكب على قدميه قبلهما، فرحب به السلطان وأكرمه ورأى له سعيه، وطيب قلبه ووعده بالدخول في أمره، وأعاده إلى دمشق إلى أن يفصل القضية وصلح الحال بينه وبين الملك الأشرف على أن الملك الأشرف يتسلم دمشق، فدخلها في أول يوم من شعبان من السنة في يوم الاثنين، ووهب السلطان الملك الكامل للملك الناصر صلاح الدين داود الكرك بما فيه من أموال ونابلس وبيسان وبلاد كثيرة وستة وعشر ين ألف دينار مصرية كما قيل، وأحسن إليه إحسانا لم يخطر بباله وتوجه إلى بلاده وقلاعه، وفيها تسلم السلطان الكامل من الملك الأشرف حران والرها ورأس عين، وجملة من بلاد الشرق، وفيها نزل السلطان الملك المظفر تقي الدين أبو الفتح محمود بن الملك المنصور على حماة في يوم الجمعة في شهر رمضان ونازلها وقاتلها بالمجانيق وغيرها، واستمر الحال هكذا إلى ليلة الخميس سابع عشر شهر رمضان فخرج الملك الناصر قليج أرسلان من حماة ليلاً وتوجه إلى خدمة السلطان الملك الكامل إلى سلمية، وكان قد وصل إليها في ذلك اليوم، فوصل إلى المعسكر المنصور الملكي الكاملي على سلمية متذللا مذعنا مستسلماً، فرحب السلطان به، وبعد يومين من ذلك وصل كتاب الملك الناصر إلى نوابه بقلعة حماة أن يسلموها إلى نواب الملك الكامل وعرفهم أنه قد طاب قلبه ورضي بما وهبه السلطان الملك الكامل عوضا عن حماة سروج، وماله بحماة من مال وغيره وأن

ذلك أنعم عليه من السلطان، فلما وصل الكتاب إلى نوابه بحماة تهيئوا لنقل الأثقال، ثم شغبت جماعة من الخدم والمماليك، وقالوا لانسلم القلعة والمدينة إلى نواب الملك الكامل ولانخرجها عن بيت الملك المظفر تقي الدين وعن أولاده وأولاد أولاده، كل ذلك ظنا منهم أن السلطان الملك الكامل قد أخذ البلد لنفسه ولم يكن الأمر كما ظنوه، ولاكما توهموه، فوصلت كتب السلطان الملك الكامل ثانيا: لم نرد هذه المدينة لأنفسنا، ولو رمنا ذلك لما امتنع علينا، فإن البلاد بلادنا والأولاد أولادنا،ونحن نتصرف في ذلك كيف شئنا، وقد اطلقنا البلاد والأقاليم انعاما وتطوعا، فإذا كنتم تؤثرون مصير هذا الأمر إلى أولاد الملك المنصور فالملك المظفر عندكم وقفوا الحال معه، فإن الملك الناصر تضرع إلينا وطلب منا أن لايصير الملك لأخيه الملك المظفر فإذا اخترتم انتم خلاف مااختاره وآثرتم الملك المظفر فشكر الله سعيكم وتقبل منكم وجزاكم الخير كيف حفظتم بيت استاذكم، وأنتم فسلموا المدينة والقلعة إلى الملك المظفر، فهو كبير البيت ومربيه، وكان والده الملك المنصور رحمه اوصى له به وفوضه إليه، وهو مصالح أخاه كما يتفق معه، وقد أخرجنا أنفسنا من الوسط، وتوجه السلطان الملك الكامل إلى الشرق في ثالث عشرين شهر رمضان، ووكل أمر الصلح إلى نوابه المحاصرون لحماة: الملك المجاهد صاحب حمص، والملك العزيز صاحب بانياس، والأمير عثمان، والأميرفخر الدين البانياسي وجماعة من الأمراء واستقر الحال والحمد لله وانتظم الصلح، واستدعاني من بالقلعة المحروسة من النواب وقالوا قد تقرر الصلح ودخول المولى السلطان الملك المظفر إلى المدينة وتسلمه لها، ونؤثر منك المضي إلى خدمته مع العسكر المنصور وطلب الأمان للأجناد والرعايا وتطييب قلوبهم وأخذ يده الكريمة على ذلك وتقبيلها، فتوجهت مع جماعة من العدول إلى المخيم في يوم الإثنين سابع عشرين رمضان، فلما دخلت عليه في الخيمة زاد في الإكرام والإنعام، ورأيت مايملأ العين قرة والقلب ابتهاجا ومسرة، وحصل عندي من

الفرح والجزل والسرور بسلطنته وولايته مالايمكنني والله وصفه لنفسي وللمسلمين، وسألته أن يؤمن الرعايا والأجناد والنواب على أنفسهم وأموالهم، فأمنهم وطيب قلوبهم ووعدهم بالخير، وأخذت يده الكريمة على ذلك فقبلتها، ثم دخل المولى السلطان الملك المظفر إلى البلد في تلك الليلة ليلة الثلاثاء ثامن عشرين شهر رمضان فنزل في الدار المعروفة بدارالأكرم وجلس للناس في بكرة الغد جلوسا عاما وكان يوما مجموعا له الناس، ويوما مشهورا بكثرة الفرح والإيناس لم يبق بالمدينة خاص ولاعام إلا ودخل إليه وقبل يده، واستبشر الناس بقدومه وسروا بمملكته وتيمنوا بسلطنته وعيد في دار الأكرم عيدا مشهودا لم يشاهدوه فيما تقدم من كثرة الخلع والخيرات، ومد سماط للناس على طبقاتهم وحضره خلق لايحصون ولما كانت ليلة الجمعة ثاني شوال صعد القلعة المحروسة المباركة ليلا، وجلس بكرة الجمعة جلوسا عاما، ونادى في البلاد بإزالة المنكرات وإسقاط المكوس والضمانات، وخلع على القضاة والأمراء والنواب والخزندارية والمقدمين والرؤساء واستقر الملك والحمد لله تعالى له، وثبت وتضاعفت أدعية الخلق وحمده له تعالى وكثر ثناؤهم بما أنعم عليهم من سلطنة السلطان الملك المظفر ومملكته وولايته عليهم، وأمر بدار العدل ففتحت وأصلحت، وجلس بها وقصده الناس من كل جانب وكف اليد المعتدية، ومنع الظلم، وأوصل الحق إلى مستحقه، ورجع إلى المدينة من كان رحل منها، ورفعت إليه القصص، فوقع عليها بالعدل الشامل، والإنعام الكامل ووصل إلى خدمته الأمير الكبير العالم سيف الدين أبو الحسن علي بن أبي علي الهذباني، وفوض إليه السلطان الملك المظفر جميع أموره في بلاده وقلاعة ورعاياه وأجناده فاعتذق ذلك، وقام به أحسن قيام ونظم شمل الدولة أجمل نظام، ورتب أحوال المملكة ومهدها، وشيد أركانها ووطدها، وقرب أهل الخير والصلاح وأدناهم وأحسن إليهم وآواهم، ورتب ذوي الأمانات والكفايات في مراتبهم وولاهم، وأبعد أهل الفساد والشر وأقصاهم، وطهر البلد منهم ونفاهم، وأظهر للشريعة

رونقا وهيبة، وفخم أمرها وأعظم في النفوس قدرها، وتقدم إلى كل من عليه حق بالخروج منه إلى السعي مع الخصم إلى مجلس الحكم كائنا من كان من أمير أو كبير، وخوفهم من المخالفة وحذرهم وأكد الوصاة عليهم وأنذرهم، وكان السلطان الملك المظفر لما ملك سلمية في سنة ست وعشرين وستمائة فوض أمورها إليه فساسها أحسن سياسة، وعمرها بالعدل أعظم عمارة، وبلغني من جماعة أنه مذ وليها لم يثبت في ديوانها درهم واحد من جناية ولامن مظلمة وابتنى قلعتها، وأعادها إلى أحسن مما كانت عليه، ورتب فيها من أمور القلاع من الأجناد والمستخدمين وغيرهم ما اشتهر ذلك وشاهده من شاهده، ووصل في خدمة السلطان الملك المظفر كاتبه الوزير الكبير العالم الذكي نجم الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الوهاب أبي الحسن بن علي الزهري ذو الفضائل الغزيرة والعلوم الكثيرة، وأطلق له ألف دينار مصرية كان وعده بها، وحكى الوزير نجم الدين المسمى أن المولى السلطان الملك المظفر لما أطلقها له اعتذر استقلالا لها وأنه قال له:ياخوند من جملة انعام السلطان وفضله أنه يعطي الآلاف ويعتذر....